أحلام مؤجلة

أحمد شاكر 2021

البحيرينية المصرية للنشر والتوزيع
B&E FOR PUBLISHING

- اسم العمل: أحلام مؤجلة
- الكاتب: مهندس: أحمد شاكر
- دققه وحرره:
- إخراج داخلي: سليل الفراعنــة.
- تصميم الغلاف: مهندس/ أنس أيمن.
- رقم الإيداع: 2021/17334
- الترقيم الدولي: 978-977-6917-11-8

9 789776 917118

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وأي انتهاك سيعرض صاحبه
للمساءلة القانونية
هذه النسخة مخصصة للقراءة فقط
ولا يجوز إعادة طبعها أو نسخها أو نشرها
إلا بعد الحصول على إذن كتابي من الناشر

-(للتواصل)-
٠٠٢ ٠١٠٠١٤٧٤٤٣
b.e.publishing.33@gmail.com
أ/ انتصار ربيع عبد الحميد
المدير التنفيذي
ونائب رئيس مجلس الإدارة

كل ما ورد في هذا العمل مسئولية مؤلفه، من حيث الآراء والأفكار والمعتقدات، وكونه أصيل له غير منقول، وأية خلافات قانونية بهذا الشأن لا تتحملها دار النشر

أحلام مؤجلة

بقلم..

م. أحمد شاكر

مقدمة وإهداء

في عام ٢٠٠٧ بولاية تكساس الأمريكية قرر أحد رجال الأعمال أن يفتح محلًّا للخمور بجانب كنيسة؛ فاعترض أعضاء الكنيسة، وأصبحوا كل ليلة يتوجهون بالصلاة والدعاء على الرجل، فجأة حدث ماس كهربي بالمحل، واحترق بالكامل؛

فاحتفل أعضاء الكنيسة بانتصار السماء واستجابة الرب لهم!

صاحب الخمر رفع دعوى قضائية ضد الكنيسة في المحكمة طالب فيها الكنيسة بمليونيَ دولار؛ كتعويض بسبب دعائهم عليه، بينما أنكرت الكنيسة، وأكدت أنه لا تأثير للصلاة والدعاء على مجريات الحياة، نظر القاضي في الأمر وفي أثناء الإدلاء بالحكم قال: "لا أعرف كيف سأحكم في هذه القضية، ولكن يبدو من الأوراق أن لدينا خمَّارًا يؤمن بقوة الصلاة والدعاء، ولدينا كنيسة لا تؤمن بها!".

بل إنك تعجب مما وصفه فيكتور هوغو في روايته (البؤساء) حينما قال: "عندما كان عمري أربعة عشر عامًا، سرقت قطعة خبز لآكلها؛ فوضعوني في السجن وأعطوني خبزًا مجانيًّا لمدة ستة أشهر؛ هذه هي عدالة البشر!".

تلك الحالة التي وصفها جبران خليل جبران عندما قال: "إن الحقيقة والكذب التقيا يومًا، فقال الكذب للحقيقة: إنه ليوم جميل حقًّا، نظرت الحقيقة حولها في ريبة، رفعت عينيها إلى السماء لترى أن الأجواء بالفعل كانت جميلة، فقضت وقتًا طويلًا بصحبة الكذب في ذلك اليوم، ثم قال الكذب للحقيقة: الماء في البئر رائع، فلنستحم معًا، نظرت الحقيقة للكذب في ريبة للمرة الثانية، ولمست الماء لتجده بالفعل رائعًا، فخلع الاثنان ثوبيهما

ونزلا للاستحمام في البئر، وفجأة خرج الكذب من البئر (وارتدى ثوب الحقيقة وركض بعيدًا)، خرجت الحقيقة الغاضبة من البئر وركضت وراءه في كل الأماكن بحثًا عن ثوبها، فنظر البشر إلى عري الحقيقة، وأشاحوا بوجوههم في غضب واستهجان، أما (الحقيقة المسكينة) فعادت إلى البئر واختفت للأبد من فرط خجلها، ومنذ ذلك الوقت يسافر الكذب حول العالم مرتديًا ثوب الحقيقة، بينما يرفض الناس أن يروا الحقيقة عارية!".

أُهدِي عملي هذا الذي بين أيديكم لكل الباحثين عن الحقيقة في كل زمان ومكان؛ لعلهم يجدونها بين دفتَي هذا الكتاب الذي بحثت فيه معكم عن الحقيقة وسط ركام الشائعات والأكاذيب؛ لعله يكون إضافة ورسالة تُحلِّق في سماء المعرفة.

أحمد شاكر

عندما يتوقف الزمن!

في أول يوم لي بالسعودية فاجأني مدير المشروع المغترب منذ عشر سنوات قائلًا: (عندما تغترب فكأنك تقوم بعمل توقف كامل لأداة الزمن، الحياة بالنسبة لك ستكون بلا معنى، لن تشعر بالبهجة، ستتحول إلى كتلة صماء من المشاعر الجامدة، وستكون بنكًا يقصده كل محتاج، سيختفي الأهل والأصدقاء واحدًا تلو الآخر، من المؤكد أن بكل بيت شخصًا مظلومًا، والمغترب دائمًا ما يكون هذا الشخص).

لم ألتفت طويلًا إلى تلك الكلمات بل لم أصدقها على الإطلاق، وقلت في نفسي، ربما تكون تجربته الشخصية في الغربة هي ما كوّنت لديه تلك النظرة، إلا أنني سرعان ما تأكدتْ لديّ تلك الكلمات عامًا تلو الآخر كقاعدة عامة مع جميع المغتربين، اختفى الأصدقاء مع مرور الأيام وصرت ضيفًا حتى وسط أهلك، لا شك أن الغربة مدرسة كبيرة، تتعرف فيها على أنواع مختلفة من البشر، إلا أنها تظل بيئة تعليم قاسية للغاية، تطرق فيها أبواب السعادة جميعها فلا تجدها إلا في ذلك الحلم الطفولي الوردي البريء الذي بداخلك، الغربة تسلب منك كل شيء تقريبًا مقابل فتات من المال تداوي بها ما تبقى من جراح أيامك.

كان معنا مسّاح مصري بمشاريع السدود بمنطقة الطائف، ولمن لا يعرف تلك المهنة الهندسية فهي لمن يقومون بتحديد الإحداثيات والمناسيب وغيرها، وكان هذا المسّاح الذي تخطى الخمسين من عمره في زيارة لأحد المواقع الجديدة مع لجنة من الوزارة في صحراء الليث؛ وهي منطقة ليست بها أي معالم أو خدمات، ومن المعتاد في تلك الظروف أن يقوم المسّاح بتحديد وحفظ إحداثيات آخر نقطة قبل الدخول في الصحراء؛ حتى يكون

من السهل عليه الرجوع إليها من خلال اتّباع خرائط جوجل، لأن هذه الصحراء متشعبة، وقد يدخلها ولا يستطيع الخروج منها ثانية، ولكن الخطأ الذي وقع فيه هذا المساح أنه لم يحتفظ بتلك الإحداثيات، ودخل في سيارة مع شخص سعوديّ كان متعاقدًا مع الشركة كمقاول باطن؛ لتنفيذ الأعمال بذلك السد المتوجهين نحوه، وهناك سيارة أخرى معهم بها لجنة تسليم من الوزارة، وفور انتهائهم من استلام الموقع قرب الظهيرة وفي أثناء عودتهم ضلوا الطريق وطاحت السيارة التي يقلها هذا المسّاح بمنطقة رملية منخفضة وتوقفت تمامًا عن الحركة فلم تُجْدِ أي محاولات لانتشالها من تلك الحفرة التي وقعت بها، ولم يكن أمام هذا المسّاح والمقاول إلا أن يقوموا بترك السيارة مكانها والتحرك مشيًا على الأقدام للخروج من تلك الصحراء في محاولة للحاق بالسيارة الأخرى رغم ضعف تغطية شبكة الاتصالات في هذا المكان وعدم اتضاح أي معالم يستدل بها، فالمعلم الوحيد الذي كان موجودًا هو بعض أبراج الكهرباء المتناثرة، ولسوء حظ هذا المسّاح أنه كان يرتدي (شبشب) بينما كان المقاول يرتدي (حذاءً)، ومع الحرارة الشديدة التي حولت الرمال إلى كتل من الجمر تحتهم فقد انصهر هذا الشبشب حرفيًّا من قدم هذا المسّاح، بينما استطاع المقاول أن يكمل المسير إلى أن خرج، ووقع هذا المساح على الأرض بعدما اشتعلت قدماه بنيران الصحراء القاحلة.

وقع الرجل في رمال ساخنة جدًّا وفقد وعيه كاملًا، في تلك الأثناء خرج المقاول واستنجد بقوات الدفاع المدني لإنقاذ الرجل الذي سقط في وسط الصحراء، وجاءت قوات الدفاع المدني وقامت بمسح المكان كاملًا في محاولة للوصول إلى الرجل، إلا أنهم لم يستطيعوا التوصل إليه، وما إن فقد الجميع الأمل في الوصول إليه صاح فيهم قائد القوات قائلًا: لن نغادر هذا المكان

إلا به حيًّا كان أو ميتًا، وأمر بإحضار المقاول في سيارة إسعاف خاصة بعدما دخل المستشفى بعد إصابته بحروق في قدمه، حتى يعطيهم معلومات عن موقع الرجل المحتمل، وبالفعل جاء الرجل وحدد لهم الاتجاه الذي خرج منه، وتوجهت القوات وصاحوا بالنداء على الرجل بأصوات عالية مع قرب غروب الشمس في محاولة أخيرة للعثور عليه وإنقاذه.

يقول المسّاح: (بعدما فقدت وعيي كاملًا لساعات وبدا جسمي خاليا من الماء والدم بعدما جف في تلك الصحراء القاحلة الساخنة، سمعت صوتًا ينادي باسمي وكأنني أحلم ورددت عليه وكأنني أحلم، وبدأت أدرك أن شخصًا ما جاء لينتشلني من موقعي هذا، فتحت عيني وصرت أنادي بأعلى صوتي أستغيث بهم، إلى أن سمعت صوت القائد يقول لهم: إنه يرد من هذا الاتجاه، إنه حيّ!

واصلت النداء وهم يقتربون مني ويقترب معهم الأمل في الحياة بعدما فقدت هذا الأمل طوال تلك الساعات التي عانيت فيها، وكانت نجاتي أشبه بالمعجزة!

وصلت قوات الدفاع المدني لي وقامت بإسعافي ونقلي للمستشفى على الفور، وقام الطبيب بإعطاء توجيهات لطاقم التمريض بألا يجعلوني أشرب الماء مطلقا في ذلك الوقت، فشرب الماء مع جفاف جسمي بالكامل قد يؤدي إلى كارثة حسب قولهم!).

ظل الرجل قرابة الشهر ونصف بالمستشفى، وقام بتركيب دعامة للقلب وكتب الله له أن يكون من الأحياء حتى الآن بعد محنة قاسية ألمت به بلا أي مقدمات! فما قيمة المال والغربة إذا واجه هذا الرجل مصير الموت في هذا الموقف، قد تقول، إن الموت علينا حق وكلنا سنموت ببلادنا أو بغير بلادنا

ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدًا، ولا تعلم نفس بأي أرض تموت، وأنا أتفق معك تمامًا، لكن قسوة الموقف وأنت تفقد كل شيء فجأة ولا تجد حولك أي أحد بل فقد الجميع الأمل في الوصول إليك ليست من المشاعر السهلة التي ينهي بها الرجل حياته، ثمن الغربة قاسٍ، وربما يكون هو أكبر ثمن قد يدفعه الرجل في حياته؛ لأنه يدفعه من عمره وحريته وافتقاده للمقربين من أهله وأصدقائه!

وليس هناك أحسن تعبيرًا في هذا الأمر مما ذكره الدكتور/ مصطفى محمود في كتابه (في الحب والحياة) حين قال: (ما نحبه في البيت والغرفة والفراش والمدفأة، وما نخلده بالأشعار والأغاني وما نشتاق إليه في ليالي الغربة، ليس هو البيت ولا الغرفة ولا الفراش ولا المدفأة، وإنما مشاعرنا وذكرياتنا التي نسجت نفسها حول هذه الجمادات وبعثت فيها نبض الحياة وجعلت منها مخلوقات تُحَبُّ وتُفْتَقَدُ، إننا نحب عرق أيدينا في مفرش مشغول وعطر أنفاسنا على الستائر ورائحة تبغنا على الوسائد القديمة.

وحينما نحتفل بالماضي نحن في الواقع نحتفل بالحاضر دون أن ندري، فهذه اللحظات الماضية التي أحببناها ظللنا نجرجرها معنا كل يوم، فأصبحت معنا حاضرًا مستمرًا، إنه الحب الذي خلق من الجمادات أحياء، والحب جعل من الماضي حاضرًا شاخصًا ماثلًا في الشعور، وإذا كنا نقرأ أن السيد المسيح كان يشفي بالحب، فليس فيما نقرأ مبالغة، بل هي حقيقة علمية.

فالحقد والكراهية والحسد والبغضاء ترفع ضغط الدم، وتحدث جفافًا واضطرابات خطيرة في الغدد الصماء وعسر دائم في الهضم والامتصاص والتمثيل الغذائي، وأرقًا وشرودًا، والنفور والاشمئزاز يؤدي إلى أمراض الحساسية، والحساسية ذاتها نوع من أنواع النفور؛ نفور الجسم من مواد

غريبة عليه، واليأس يؤدي إلى انخفاض الكورتيزون في الدم، والغضب يؤدي إلى ارتفاع الأدرينالين والثيروكسين في الدم بنسب كبيرة، وإذا استسلم الإنسان لزوابع الغضب والقلق والأرق واليأس أصبح فريسة سهلة لقرحة المعدة والسكر وتقلص القولون وأمراض الغدة الدرقية والذبحة، وهي أمراض لا علاج لها إلا المحبة والتفاؤل والتسامح وطيبة القلب.

جرب ألا تشمت ولا تكره ولا تحقد ولا تحسد ولا تيئَس ولا تتشاءم، وسوف تلمس بنفسك النتيجة المذهلة، سوف ترى أنك يمكن أن تشفى من أمراضك بالفعل، إنها تجربة شاقة وسوف تحتاج منك إلى مجاهدات مستمرة ودائبة مع النفس ربما لمدى سنين وسنين، وسوف يستلزم ذلك أن تظل في حالة حرب معلنة مع أنانيتك وطمعك، حرب يشترك فيه العقل والعزم والإيمان والإصرار والصبر والمثابرة والإلهام، وأشق الحروب هي حرب الإنسان مع نفسه، وما أكثر القادة الذين استطاعوا أن يحكموا شعوبهم، وعجزوا عن حكم أنفسهم، وما أسهل أن تسوس الجيوش، وما أصعب أن تسوس نفسك،

ولا يكفي أن تقول، من الغد لن أبغض أحدًا ولن أحسد أحدًا، وتظن بذلك أن المشكلة انتهت، فقليل من الصراحة مع نفسك سوف تكشف لك أنك تكذب وأنك تقول بلسانك ما لا تحس بقلبك، والانتصار على الأنانية ليس معركة يوم، وإنما معركة عمر وحياة، ولكن ثمار المحبة تستحق كفاح العمر.

وإذا قالوا لك إن معجزة الحب تستطيع أن تشفي من الأمراض، فما يقولونه يمكن أن يكون علميًّا، فبالحب يحل الانسجام والنظام في الجسد والروح، وما الصحة إلا حالة الانسجام التام والنظام في الجسد، وإذا كان الحب لم يشف أحدًا إلى الآن، فلأننا لم نتعلم بعد كيف نُحب، الرجل يحب المرأة وينتحر من

أجلها ويقتل ويختلس ويرتشي ويرتكب جريمة ويظن أن هذا هو منتهى الحب وهو لم يدرك بعد أن الحب هو أن يحب الكل، أن ينظر إلى كل طفل على أنه ابنه، وكل كهل على أنه أبوه، وأن يكون حبه لامرأته سببًا يحب من أجله العالم كله ويأخذه بالحضن، وبالنسبة لعالم اليوم، عالم القنبلة الذرية والصاروخ والدبابة والدولار، الكلام في هذا اللون من الحب هذيان، وتخريف! ولهذا فالمرض في هذا العالم فريضة، والعذاب ضريبة واجبة لهذه القلوب التي تطفح بالكراهية، لا بد أن نمرض لأن العالم مريض وعلاقاته مريضة.

والذبحة والجلطة والضغط والربو أمراض نفسية في حقيقتها، أمراض إنسان يطحن أضراسه غيظا ويعض على نواجذه ندمًا، ويستجدي النوم بالمنومات، ولا يستطيع النوم لأن أطماعه تحاصره، ولأنه جوعان مهما شبع، فقير مهما اغتنى، إنسان يفرق بين أبنائه لأن بعضهم أبيض وبعضهم أسود، إنسان يتسلق على إنسان، ويتسلق عليه إنسان في مجتمع طاقته المحركة صراع الطبقات، وفي مثل هذا العالم الحب مستحيل، لأن كل واحد يضع إصبعه على الزناد، كل واحد في حالة توتر، وهذا التقلص المستمر هو المرض، وهو الذي يظهر في ألف مرض ومرض، من تسويس الأسنان إلى السرطان، إذا قالوا لك إن سبب المرض ميكروب، قل لهم لماذا لا نمرض جميعًا بالسل مع أننا نستنشق كلنا ميكروب السل في التراب كل يوم، ويدخل إلى رئاتنا في مساواة؟ لأن بعضنا يقاوم وبعضنا لا يقاوم.

وما هي المقاومة سوى أن تكون الحالة سوية للجسم، حالة العمل في انسجام بين كل الخلايا والغدد والأعصاب، وهي حالة ترتد في النهاية إلى صورة من صور الائتلاف الكامل بين النفس والجسد، ولهذا يمكن أن يكون مرض السل مرضًا نفسيًّا، كما يمكن أن تعاودك الإنفلونزا بكثرة لأسباب

نفسية، مع أن العلم يؤكد أن سبب السل هو ميكروب [باسيل كوخ]، وسبب الإنفلونزا هو (الفيروس)، ولكنها ليست أسبابًا قاطعة، لأن العدوى بها لا تحدث المرض إلا بشرط وجود القابلية، والقابلية حالة نفسية كما أنها حالة جسدية.

وأمراض كالإكزيما أَمْكَن إحداثُهَا بالإيحاء في أثناء التنويم المغناطيسي، بل إن التهابًا كالتهاب الحرق في الجلد يمكن إحداثه بنفس الطريقة دون مادة كاوية، لأن النفس يمكن أن تحرق كالنار وتكون كالمادة الكاوية، ولأن النفس يمكن أن تكون أخبث من الميكروب، والحالة النفسية يمكن أن تكون سببًا في الحمى الصداع والضغط والسكر والروماتيزم والسرطان، وإذا قرأت أن الحب يشفي وأن السيد المسيح كان يشفي بالحب فتأكد أنك تقرأ حقيقة علمية).

حدث زلزال عنيف جدًّا عام ١٩٨٨ ضرب دولة أرمينيا بقوة ٨.٢ ريختر! هذا الزلزال قام بتدمير البلد حرفيًّا، وتسبب في موت أكثر من ٣٠ ألف شخص في أقل من ٧ دقائق!

وقامت وكالة الأنباء الأرمينية بعمل تقرير على حلقات منفصلة عن قصص حقيقية لأناس نَجَوْا من الموت بأعجوبة.

أحد هذه القصص كانت لرجل قام بالركض إلى المدرسة التي فيها ابنه؛ لكي يرى ماذا فعل به هذا الزلزال.. وصل ووجد المدرسة قد تم تدميرها والطلاب تحت الأنقاض، وسقط الرجل على ركبته وهو يلطم عندما رأى مصير ابنه.. وفجأة إذا به يقوم ويتذكر أنه دائمًا ما كان يعد ابنه بجملة واحدة ثابتة وهي (مهما كان الأمر سأكون دائمًا بجانبك).

وتوجه نحوه! ثم نظر إلى الأنقاض المتراكمة وقام مهرولًا نحوها، وجعل يتذكر

مكان الفصل الذي يدرس فيه ابنه، راح ناحية هذا الحطام ودون أي أدوات بدأ يحفر ويزيل الأنقاض عنهم! أتت المطافي ولاحظ ضابط المطافي الرجل وتأثر كثيرًا لمنظره، وحاول إبعاده عن الحطام دون جدوى.

وظل الرجل يبحث عن ولده طيلة ٢٥ ساعة متواصلة بيده، والأمر الوحيد الذي كان أمام عين الأب هو وعده لابنه، وفجأة وبينما هو ينزع حجر ضخم ظهر تجويف فنادى بأعلى صوت باسم ابنة (آرماند) وحدث ما لم يتوقعه الرجل عندما سمع صوت ابنه: (أنا هنا يا أبي لقد أخبرت زملائي أنك ستأتي لأنك وعدتني (مهما كان الأمر سأكون بجانبك..وهاقد فعلت يا أبي)، مد والده يده وهو يرفع الأحجار بقوة ويزيلها بحماس وسرعة، ليتفاجأ برد ابنه الذي قال له: (يا أبي دع زملائي يخرجون أولًا، لأني أعرف أنك ستخرجني مهما كان الأمر، أعلم أنك ستكون دائمًا بجانبي)!! وبسبب وعد الأب لابنه وإيمان الطفل بأبيه تم إنقاذ ٢٦ طفلًا كانوا في عداد الأموات.

إننا جميعا نفتقر لهذا الاحتضان ممن حولنا، مهما بلغ بك العمر، فإنك تحتاج دائمًا إلى من يشعر بك ويدعمك ويدفعك خطوات وخطوات للأمام، ويأتي ذلك بأشكال مختلفة، فالناس تنتظر من المغترب أن يسأل عنهم دائمًا ويتفقدهم، وهو الذي بحاجة لذلك، طالب الثانوية الذي يقاوم كل شيء في فترة المراهقة ليثبت أنه هنا ينبغي أن ندعمه ونكافئه ونزرع فيه الطموح ونهيئ له بيئة مستقرة يستطيع من خلالها تحقيق إنجازه الذي يبتغيه، لا أن نعنفه ونعايره بهفوات وسذاجة المراهقة التي طالما وقعنا فيها جميعًا، المريض الذي يتفقد الأمل في عيون الناس ينبغي أن يراه بازغًا مع كل زيارة،

فالحقيقة أننا نستمد قوتنا ممن حولنا وليس من دواخلنا، فما أضعف أرواحنا الهشة في مواجهة هذا العالم الذي لا يرحم، ينبغي أن نعطي الحب والأمل والطموح، نمنح القوة والخير والسعادة، نداوي الجراح ونغيث الملهوف وندفع الإساءة بالإحسان.

أحلام مؤجلة

ماذا لو استيقظت يومًا فوجدت الحياة دون أجهزة المحمول وشبكات الاتصالات والإنترنت؟؟؟

قد يكون السؤال مفاجئًا ومزعجًا ومربكًا ومستحيلًا، لكن دعونا نفترض أن صاروخًا قد سقط على أبراج الاتصالات الدولية، فقطع إشارتها وإرسالها، دعونا نتخيل أن كابلات الإنترنت الموجودة بالبحار والمحيطات قد التقمها قرش عنيف أو حوت مفترس، سؤال جدلي له إجابات عديدة لكن هل سيكون هناك من يقول إن الحياة ستتوقف لهذا السبب، بالطبع لا، لكن المؤكد أن حياتنا ستتأثر كثيرًا لهذا الحدث، آلاف النداءات من العقل والقلب والوجدان والتي ستتفاجأ بها دفعة واحدة، هل تذكر أصدقاء الدراسة الذين سهرت وحلمت معهم بزهرة شبابك، أين هم بعد سنوات من التخرج، فرقتهم الحياة والغربة والعمل والزواج بلا رجعة، هل لي أن أبحث عنهم وأتفقد حالهم، بل ستتفاجأ مع أول اجتماع أسري أو عائلي أن هناك حوارًا يستمع إليه الجميع بجدية واهتمام على غير ما كانوا عليه من الانشغال ببرامج التواصل، وسيزداد عجبك عندما تضطر لقضاء هذه الأوقات الطويلة الفارغة في البحث عن أصدقاء لطالما تركتهم من أجل إنهاء (جيم بابجي) أو (سكور صب واي)، أما إذا كنت مغتربًا فستتجرع ويلات الغربة وأنت تتخيل صورة أهلك وأصدقائك الذين لم تراهم منذ سنوات وتأخر الشريط التسجيلي الذي أرسلوه مع صديقك القادم من مصر كما كان وضع المغتربين قبل عقود

قليلة، ماذا يحدث عندهم؟! هل تزوج فلان؟! هل مات فلان؟! فراغ وحيرة كافية لتعذيبك، ستتفاجأ إذا انقطعت شبكات الاتصالات والإنترنت أن عندك من الوقت والأصدقاء الحقيقيين الكثير، وأن الواقع الافتراضي الذي كان يتمثل في مواقع التواصل ليس إلا كعمل درامي محنك استطاع أن يجعل المُشاهِد مندمجًا به حتى تخيل نفسه وكأنه أحد أبطال هذا العمل، هذا العالم الافتراضي الذي صنع أبطالًا ورموزًا قد يكونون في الحقيقة على غير ما يبدون خلف شاشات الإنترنت، ستضطر أن تحول مشاعرك الإلكترونية التي كنت تشارك بها أصدقاءك فرحتهم وحزنهم عبر مواقع التواصل إلى مشاركة وجدانية حقيقية ملموسة، ستتفاجأ إذا ما انقطعت عن هذا العالم أنك قد انتقلت من واقع افتراضي إلى واقع حقيقي مع أشخاص حقيقيين لديهم مشاعر وأحاسيس أكثر من مشاعر الحب والغضب والإعجاب والحزن، هذه ليست دعوة للرجعية ولا انتقاصًا من قدر هذا التطور التكنولوجي المبهر، بل هي إشارة إلى أننا فقدنا كثيرًا من إنسانيتنا ومشاعرنا كضريبة لهذا التطور، بل تحولنا لما يشبه الآلات التقليدية التي كانت في منتصف القرن الماضي.

وفي هذا الصدد أود أن أشير إلى واقعة غريبة قد تظهر لك البون الشاسع بين الواقع الذي نعيشه اليوم، وما عاشه أباؤنا وأجدادنا، ففي عام ١٨٨٨ سافر الأمير عزيز حسن حفيد الخديوِ إسماعيل إلى ألمانيا؛ لإكمال تعليمه الجامعي، وهناك رأى اختراعًا جديدًا ينقل الناس دون حاجة للدواب وكان هذا الاختراع هو (السيارة)، وهنا قرر أن يشتريها ويقوم بشحنها إلى مصر؛ لتكون أول سيارة تدخل الأراضي المصرية، لا تتصور كم الدهشة التي قابل بها الناس هذا

الاختراع المذهل (آنذاك) والتي تتنقل بلا حمار أو حصان، حتى إن الكُتَّاب والصحفيين قد انبروا للكتابة عن تلك السيارة، وأنها تسير ببركة العفاريت والشياطين، رغم أن حركة الأمير عزيز بسيارته الوحيدة في أرجاء المحروسة كانت مقتصرة على حدائق القصور وفقط، حتى جاء اليوم الذي أحبَّ فيه أن يتنزه بسيارته مع أصدقائه فقرر أن يذهب من القاهرة إلى الإسكندرية بها، وكانت مخاطرة كبيرة لأن الطرق لم تكن ممهدة، وكان يضطر إلى اختراق بعض الأراضي الزراعية لإكمال رحلته المغامرة مِمَّا عرضه لمحاولات قتل من أصحاب تلك الأراضي، بل أذاعوا فيما بينهم أن رجلًا جاء ليغير عليهم بشيء من عمل الجن لا يصدقه عقل، فكيف تسير تلك الآلة دون دابة تجرها أو حبال متينة تدفعها، لكنه رغم ذلك قد استطاع إكمال رحلته والوصول لمدينة الإسكندرية بعد عشر ساعات فقط من القيادة بسرعة السيارة القصوى آنذاك والتي كانت ٢٠ كم في الساعة.

ولسنا هنا بصدد الحديث عن الأحلام المؤجلة من الناحية العلمية فقط، بل أيضا على مستوى العلاقات الإنسانية

كان لدى "غاندي" حلمٌ بأن تشبع البطون السمراء الجائعة بدلا من المستعمر العنصري، وكان لدى "مانديلا" حلمٌ بأن تصدح الحناجر السمراء بالنشيد الوطني لأرضهم، وكان لدى "مارتن لوثر" حلمه الطويل بأن لا يعامل أبناؤه الأربعة على أساس لونهم، وانزعج "ديل كارنيجي" يومًا من حذائه الممزق حتى رأى رجلًا بلا أقدام، فرغم تطور الشعوب والمجتمعات البشرية إلا أن العنصرية ما زالت تحكم

الكثير من أفعالنا حتى اعتذاراتنا للبعض قد تحمل إشارات لهذه العنصرية، وكأن الإنسانية التي تجمعنا على هذا الكوكب تنادي: (أحن لذات التربة التي ركضتُ عليها طفلًا ولثمتُها شابًّا، مثلك أنا، تؤذيني نظرة دونية وعطف مبتذل وسلام بنصف يد، أبحث عن الود في وجوه الخلق وأتطلع إلى علاقة إنسانية راقية يسودها الحب والمودة والاحترام)، ولا يعلمون أنه وحتى هذه اللحظة يتم تصنيف شعوب طبقًا لمعتقداتهم قبل أن يتم تصنيفهم حسب الجنس أو اللون أو البشرة، وقد تصبح هذه المعتقدات سر شقائهم بل سر وجودهم!

عذرًا.. هذا ليس من حقك!

قد يفاجئك أحدهم بأسئلة مستفزة مثل: كم راتبك؟ بكم اشتريت شقتك الجديده؟ وكم معك من أموال بالبنوك؟ والغريب عندما تأتي هذه الأسئلة من شخص لا يمثل لك أي صفة ولا تربطك به صلة وُد أو قرابة، وكأن هذه أشياء مباحة ومتاحة للجميع دون أدنى اعتبار لخصوصيتها.

بعض الأشخاص يحبون أن يمارسوا هذا الضغط النفسي على الناس بقصد أو دون قصد، ناسين أو متناسين ما تسببه هذه الأمور من إحراج وضيق صدر، خاصة عندما يتم التدخل فيها وإبداء الرأي.

ينبغي أن يعلم الناس أنه ليس من اللياقة طرح مثل هذه الأسئلة، وأن يتعلموا أيضا أنه ليس بالضرورة مصارحة الناس بتلك الأمور تحت وطأة الإحراج، البيوت تعمر بستر الله فلا تكشفوا ستركم.

وأنا شخصيًّا أرى في غالبية من يبادرون بتلك الأسئلة نوايا غير بريئة، أقلها التدخل في خصوصيات الآخرين، وكما تعلمنا أن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

وتزداد هذه الأسئلة تشعبًا عندما أزور صالون حلاقة، فأشعر وكأن الحلاق والزبائن الموجودين وكأنهم خبراء في كل شيء وقد يكون أغلب هؤلاء لا يخرجون من المحل أساسًا ولا يكفون عن الثرثرة طوال اليوم بلا فائدة، غير أن هناك مأساة تتجدد مع كل مرة أذهب فيها للحلاق لأقص شعري، ولا أدري هل هذا الأمر يحدث معي أنا فقط أم مع الجميع، فكيف يجتمع ذلك الكرسي المرتفع الذي يضعونه وكأنني على موعد لإلقاء كلمة في مؤتمر الأمم المتحدة مع قِصَر قامة الحلاق (في الغالب) مع طولي الشاهق الذي يقترب

من سقف المحل، مسألة أشبه بشعرة رمش دخلت عين شخص مبتور اليدين، لأقضي قرابة النصف ساعة ما بين (وطي شوية يا أستاذ – يمين شوية يا باشا – تعال برقبتك شمال – ريح تاني يا ريس –........) وهكذا حتى يُنَفّض الحلاق فوطته وأتنفس الصعداء لأعاود رحلة الحياة بعد هذه العملية الجراحية الدقيقة، خاصة عندما يعزف الحلاق بمقصه الدقيق حول أذنيك يتفقد الشعر الصغير الشارد وأنت في حالة خوف وترقب أن يقطع تلك الأذن التي عاشت معك فوق الثلاثين عامًا، وكذلك ما يقوم به بعض الحلاقين من عمل مساج للرأس وهذا ما شاهدته هنا بالسعودية، وخاصة إذا ذهبت إلى الحلاقين الهنود أو بعض المصريين وغيرهم، فما يفعلونه برأسي من (خبط ورزع وضرب) يجعلني أشك في أن أعود لذاكرتي أو لصوابي مرة أخرى!

دخلت ذات مرة لمحل حلاقة بجوار الحرم المكي بعد أن أديت مناسك أول عمرة بحياتي، وجلست لأسترسل للحلاق الهندي عما أريده من تقصير للشعر وتطويل للسوالف وتهذيب لزوايد الشعر وتحديد بالموس وخلافه، وكان يهز رأسه كعادة الهنود دون أن يلتفت لأي شيء مما أقوله، ولا أدري أن تلك المحلات تقوم فقط بإزالة شعر الرأس بالكامل، وفي أقل من خمس دقائق قام الحلاق بقص شعر رأسي كاملًا ووضع (البودرة) المعروفة، وصاح قائلًا: (نفر تاني يبغي حلق يجي مكان نفر هذا).

علينا أن ندرك أننا من حقنا أن نقول لا وقتما نحب وكيفما نحب، أو أن نصمت وقت أن نريد الصمت، فالموافقة مجبرًا على بعض المواقف قد يكون كارثة بكل المقاييس، وأذكر في هذا الصدد ما حدث عندما سُئِل الرئيس الروسي فلاديمير بوتين عن رده في اتهام الغرب له بأنه ديكتاتور ومهووس

بالتسلّح فقام بسرد قصة روسية شهيرة بعنوان: (أعطني شرفك وأعطيك ساعة تعرف بها وقت اغتصابك).

وتدور أحداث هذه القصة حول عائلة كانت تمتلك مزرعة كبيرة بها من الخيول والأبقار والأغنام الكثير، وكانت تنتج حقولها وبساتينها غلالًا وتدر أبقارها الألبان، وكان رب العائلة يذهب للسوق مرة كل أسبوع لبيع المحاصيل وجلب المال، وكانوا يتركون شابًّا واحدًا يافعًا يحرس تلك المزرعة والبيت الذي تبقى فيه النساء، وكان هذا الشاب مدربًا على استخدام السلاح باحترافية، وفي أحد الأيام وبينما كان هذا الشاب يجوب المزرعة متفقدًا لها جاءه بعض الناس ليكلموه فأوقفهم بسلاحه على مسافة منه، فبدءوا في تليين الحديث معه ليشعروه بالثقة تجاههم، وقالوا له إنهم مسالمون لا معتدون، ولا يريدون له سوى الخير، ولم يكن هؤلاء إلا عصابة إجرامية متمرسة في النهب والسرقة.

فقاموا بإخراج ساعة فاخرة لها رونق ومظهر جذاب، فأُعْجِب هذا الشاب بالساعة وأبدى رغبته الشديدة في امتلاكها، فسألهم عن ثمنها فقالوا له بأنهم يعرضون عليه مبادلة تلك الساعة بالبندقية التي يحملها، فكّر الشاب قليلًا، وكاد يوافق على هذا العرض، لكنه تراجع قليلًا وقال لهم: انظروني إلى الغد حتى أفكّر، ساعتها انصرفت العصابة بعدما فشلت في خداع هذا الفتى، وفي مساء هذا اليوم عاد أبوه وإخوته فحكى لهم ما حدث، وراح يصف لأبيه جمال الساعة وفخامتها، فقال له أبوه: إذن فلتعطهم سلاحك ولتأخذ الساعة، وحين يهاجمونك بعدها ويسرقون قطعان ماشيتك وينهبون مزرعتك ويغتصبون أمك وإخوتك انظر في ساعتك الجميلة وقل لهم: (آه إنها تشير إلى كذا وكذا من الوقت).

فَهِم الولد مراد أبيه وتمسك بسلاحه وأدرك أن الاندفاع الأعمى وراء العواطف يعني الضياع والموت المحقّق.

المتصالحون مع أنفسهم حقًّا لا يرون في تميز الآخرين تحديًا لهم، بل يرونه إضافة لمنظومة الرقي والنجاح، تجدهم يدعمون المتعثر حتى يقف، ويساعدون التائه حتى يصل، ويشيدون بالجميل لأنه يستحق، ويفرحون بالإنجازات لأنها تحاكي لغة أرواحهم السامية.

ولعل من أروع ما جاء في هذا السياق ما كان يفعله تجار حلب بكل صباح، حيث كانت عادتهم وخاصةً في الأسواق بالمدينة القديمة وسوق العطارين والسقطية وغيرها عندما يفتحون محلاتهم يضعون كرسيًّا صغيرًا بجانب باب الدكان، وأول زبون يأتي لمحل أي تاجر منهم يقوم ذلك التاجر بإدخال الكرسي لداخل المحل ويبيع للزبون، وعندما يأتي زبون آخر ويسأل عن سلعة فإن كانت موجودة يخرج التاجر من محله وينظر إلى السوق ويلاحظ أي محل لا يزال الكرسي موجودًا على بابه، فيقول للزبون هل ترى ذلك المحل؟ إن شاء الله ستجد طلبك لديه فأنا استفتحت وجاري في السوق لم يَسْتَفْتِحْ بعد.

السعادة التي تهديها لأحدهم ستجوب الطرقات وتعود لقلبك يومًا ما، فقط ثق بالله واطمئن، أما الأنانية والطمع وعشق الذات فمردُّه في النهاية الخزي وضياع كل ما جمعته.

عندما يُبدع القدر!

أذكر حادثة شهيرة حدثت في تسعينيات القرن الماضي ربما يتذكرها البعض ممن يتابعون مسابقة الدوري الممتاز؛ حيث كانت المنافسة شديدة في أحد المواسم على لقب هداف الدوري بين العملاقين حسام حسن لاعب النادي الأهلي آنذاك وأحمد الكاس لاعب نادي الزمالك، حيث تساوى اللاعبان في عدد الأهداف، وكان لكل منهما مباراة متبقية في جدول الدوري، وسيتم إقامة المباراتين في نفس التوقيت، وإذا بالنجم أحمد الكاس يسجل هدفًا لتتعالى صيحات الزملكاوية احتفالًا بنجمهم، وما إن مرت العشرون دقيقة، إلا وقد أحرز إبراهيم حسن هدفًا في المباراة الأخرى وسط ترقب شديد من جماهير الأحمر، والتف الجميع حول أخيه حسام في مشهد غريب لتهنئته بالهدف حتى ظن الحكم أن الذي سجل الهدف هو حسام حسن وسجله لصالحه، ليتساوى مع أحمد الكاس في عدد الأهداف، وليفوز حسام بلقب هداف الدوري هذا العام؛ لكون الأهلي هو الفائز بدرع الدوري، ولعلها من أشهر المواقف التي جعلت من الشبه الشديد بين التوءم فرصة للتحايل وحسم لقب الهداف لصالحهم.

وليست هذه الحالة الوحيدة التي أذكرها في هذا الصدد، فكم من السخريات والنوادر التي تصاحب هذه المواقف، إلا أنني وقفت مذهولًا أمام ذكاء سائق أينشتاين الذي كان شديد الشبه به، ومع اكتشاف أينشتاين للنظرية النسبية كثرت الدعوات له من كافة جامعات العالم لشرح نظريته العملاقة حتى أصابه التعب من كثرة السفر، وبينما هو في الطريق إلى أحد هذه اللقاءات ولشدة مرضه فقد طلب من سائقه أن يحاضر الناس

بدلًا عنه، فسائقه شديد الشبه به، وقد حضر شرح هذه المحاضرة مئات المرات ويحفظها عن ظهر قلب، وبالفعل فقد قام السائق بإلقاء المحاضرة وجلس أينشتاين يستمع إليه في زهو وسط جمع كبير من أساتذة الجامعة بعدما أخفى جزءًا كبيرًا من ملامحه بعصابته، حتى جاءه سؤال في نهاية اللقاء من أحد الحاضرين ووقف عاجزًا عن الإجابة عليه، إلا أنه سرعان ما أبدى الثقة وقال له: يبدو أنكم لم تستوعبوا جيدًا وسأترك المجال لسائقي للإجابة على هذا السؤال، وصعد أينشتاين المنصة وأجاب ببراعة وسط ذهول الجميع.

ولعل من هذه السخريات ما كان ملهمًا لفكرة جائزة نوبل، فعندما توفي شقيق ألفريد نوبل نشرت جريدة فرنسية خبرًا بالخطأ: (وفاة تاجر الموت ألفريد نوبل) ظنًّا منهم أنه هو الذي توفي وليس شقيقه، ووصفوه بتاجر الموت لاختراعه الديناميت الذي تم استخدامه في الحروب والقضاء على البشر، فكان الخبر صادمًا له، وهو ما جعله يفكر في خدمة البشرية واستحداث جائزته الشهيرة.

ذات يوم تقدم رجل لشغل مهنة منظف مراحيض في إحدى شركات الكمبيوتر الكبيرة وأخذ موعدًا لمقابلة مع مدير الشركة.

وفي أثناء المقابلة أخبروه بأنه قد تم قبوله في الوظيفة المتقدم لها، ولكنهم بحاجة إلى البريد الإلكتروني فأجابهم بأنه لا يملك بريدًا إلكترونيًّا، وليس لديه جهاز كمبيوتر في بيته!

فاندهش المدير وقال له: ليس لديك جهاز كمبيوتر في هذا العصر يعني أنك غير موجود!! وإن كنت غير موجود يعني أنك لا تستطيع العمل عندنا، خرج الرجل حزينًا بعد أن أغلقت أبواب العمل في وجهه!

وكان كل ما يملكه في جيبه ١٠ دولارات فقام بشراء ١٠ كيلو جرامات من الفراولة، وبدأ يبيع تلك الفاكهة ليجمع في نهاية اليوم ٢٠ دولارًا، بعدها أدرك الرجل أن الأمر ليس صعبًا، فبدأ يكرر هذه العملية ثلاثًا وأربعَ مرات يوميًّا؛ ليتضاعف دخله، حتى استطاع شراء دراجة هوائية، وبعد فترة من العمل استطاع الرجل شراء شاحنة إلى أن أصبح يملك شركة صغيرة لبيع الفراولة، وبعد مرور خمس سنوات أصبح الرجل يمتلك أكبر مخزن للمواد الغذائية بالمدينة التي يسكنها، بعدها بدأ الرجل يفكر بالمستقبل، وقرر أن يؤمن على عمالة الشركة عند أكبر شركات التأمين، وفي مقابلة مع موظف شركة التأمين طلب من صاحب الشركة البريد الإلكتروني حتى يرسل له عقد التأمين!

فأجابه بأنه لا يملك بريدًا إلكترونيًّا وحتى إنه لا يملك كمبيوتر!!

رد موظف التأمين مستغربًا: لقد أسست أكبر شركة للمواد الغذائية في خمس سنوات، ولا تملك بريدًا إلكترونيًّا، فماذا كان سيحدث لو أنك كنت تملك بريدًا إلكترونيًّا؟؟!!

رد الرجل عليه قائلًا: لو كنت أملك بريدًا إلكترونيًّا قبل خمس سنوات لكنت الآن أنظف مراحيض!!

وَيُحْكَى أن المنطق والقدر التقيا يومًا في سفر طويل، وفي منتصف الطريق توقفت السيارة التي تقلهما، وحاولا أن يُكْمِلَا مشوارهما مشيًا على الأقدام قبل أن تحل عليهما ظلمة الليل، فحاولا أن يجدا مأوىً لهما ولكن دون فائدة!

هنا قرر المنطق أن ينام بجانب شجرة، أما القدر فقد قرر أن ينام بمنتصف الطريق، فقال له المنطق: ما هذا!! إنك سوف تعرض نفسك للموت، ومن

الممكن أن تأتي سيارة وتدهسك!! فقال له القدر: ومن الممكن أيضا أن تأتي سيارة فتراني وتنقذنا!! وفعلًا نام المنطق تحت الشجرة والقدر بمنتصف الشارع، وبعد ساعة جاءت سيارة كبيرة ومسرعة وعندما رأت شخصًا ينام بعرض الطريق حاولت التوقف، ولكن لم تستطع فانحرفت باتجاة الشجرة ودهست المنطق، وعاش القدر.

الأمور ليست دائمًا كما ترى!

قبل ثلاث سنوات كنت أعمل بمشروع صيانة وتشغيل مستشفى الملك فيصل بمكة المكرمة، وبحكم أنها كانت من أقرب المستشفيات للحرم المكي فقد كان هناك زيادة كبيرة في أعداد المترددين على المستشفى خاصة في موسم رمضان وأيام الحج، وفي إحدى الليالي الرمضانية كنت مديرًا مناوبًا للصيانة بالفترة المسائية، وفي أثناء جولتي بالمستشفى وجدت سيدة مصرية مسنة بقسم الطوارئ فنادت عليّ وقالت لي: أنت مصري قلت لها: نعم. قالت لي: منين من مصر؟ قلت لها: من دسوق. قالت لي: (أنا جنبكم من دمنهور.. وكنت جاية أعمل عمرة وفجأة جاتلي غيبوبة سكر وأنا في الحرم، والإسعاف جت شالتني وجابتني هنا وتوهت من الحملة اللي كنت فيها).. قلت لها: (معاكي رقم مشرف الحملة أو حد من اللي معاكي في الفندق قالت لي لا، كل الأرقام في الفندق).. سألتها عن اسم الفندق أو مكانه، لكنها لم تتذكر أي شيء.. قلت لها: (كدا مفيش حل غير أننا ننزل منشور على فيس بوك، ونطلب من كل الناس إنها تعمل مشاركة لحد ما نوصل لحد في الحملة).. وافقت الست وقمت بتصويرها وقالت لي اكتب: (إلى ابني فلان وزوج بنتي فلان اتصلوا على مشرف الحملة فلان عشان سابني في المستشفى وأنا مش عارفة أوصله).. وبالفعل قمت برفع المنشور على فيس بوك، وتمت مشاركته أكثر من ٧ آلاف مشاركة في خلال ٤ ساعات.. انتهيت من عملي وذهبت للسكن قبيل الفجر، وفي اليوم التالي فوجئت بزملائي في الفترة الصباحية يبلغوني أن شخصًا ما يبحث عني ويتوعدني، سألتهم عن اسمة فوجدته هو نفس اسم الشخص الذي ذكرته بالمنشور وهو

مشرف الحملة، وفي الحقيقة أنني لم أمتلك الشجاعة الكافية للذهاب للعمل في ذلك اليوم خوفًا من بطش ذلك الرجل الذي ذيع صيته على فيس بوك بأنه ترك سيدة كانت معه بالحملة، وكنت أنا السبب في ذلك، في النهاية تم العثور على السيدة وإعادتها للفندق وهذا كان المطلوب وتم خلال ساعات قليلة، فربما تفعل شيئًا بنية طيبة لكن يساء فهمك، وعلى النقيض فقد تفعل شيئًا سيئًا بصورة احترافية تجعل الناس يظنون بك الخير، ففي إحدى الليالي قارسة البرودة وبينما كنت أسهر بسكن الجامعة بمدينة شبين الكوم مع زميلي بالغرفة، وإذا بالباب يدق في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ظننا أنها الشرطة، فتحنا الباب لنتفاجأ بفتاة في أواخر العشرينيات بعباءة سوداء داكنة وقد بدا عليها علامات القلق وقالت: (أنا ساكنة معاكم فوق في العمارة وجوزي اتأخر في الشغل وأنا قلقانة عليه) سألناها عن مكان عمل زوجها ارتبكت قليلًا وقالت: (في قاعة أفراح).. نزلنا معها وبعد دقيقة وجدنا (تاكسي) قد توقف أمام العمارة ونزل منها شاب (روش) ولم يستطع أن يخفي ذعره عندما رآنا، داهمته الفتاة بالقبلات والأحضان الدافئة وقالت له: (دول كانوا نازلين معايا عشان ندور عليك)، وصعدوا أمامنا وقد اشتبكت أصابعهم في مشهد درامي كلة شوق ومحبة مع موسيقى تصويرية حزينة توقف عندها الزمن لبرهة، ليحكي أجمل قصص الرومانسية، لنتفاجأ في الصباح أنه كان (زبون ليل) جاء في غياب والدتها وأنها ليست متزوجة، وفعلت ذلك حتى لا يراه أحد منا ويطارده في ذلك الوقت المتأخر من الليل، ولكن الله سلم!

ذكرني ذلك بحيلة ابتكرها أحد الأقارب الذي كان جنديًّا يؤدي خدمته العسكرية، وذات يوم أمره قائد الكتيبة بالذهاب لفرن العيش لشراء خبز بخمسة جنيهات، فخرج الجندي ولم يعد.

ذهب إلى بيته وظل هاربًا لسبع سنوات كاملة حتى تخطى السن القانوني لتأدية الخدمة العسكرية، ثم ذهب لاستلام الشهادة، لكنه لم ينسَ أن يأخذ معه الخبز ليجد نفس الضابط الذي تركه قبل خمس سنوات قد أصبح (عقيدًا)، وإذا به يدخل مكتبه متلهفا: (معلش يا سعادة البيه الفرن كان زحمة ولسه جايب العيش حالًا أهوه)، فاستغرب للأمر وسأله: من أنت؟!، قال له: (أنا فلان اللي بعتني أجيب العيش من سبع سنين!!)، فضحكا كثيرًا وقام بتسهيل إجراءات حصوله على شهادة تأدية الخدمة العسكرية.

دخل الزوج على زوجته فوجدها تبكي بشدة فسألها عن السبب فقالت له إن العصافير التي فوق شجرة بيتهم تنظر لها حينما تكون دون حجاب، وهذا قد يكون فيه معصيةً لله، فقبلها الزوج بين عينيها على عفتها وخوفها من الله وأحضر

فأسًا وقطع الشجرة، وبعد أسبوع عاد من العمل مبكرًا فوجد زوجته نائمة بأحضان عشيقها.

(لم يفعل شيئًا سوى أنه أخذ ما يحتاج له وهرب من المدينة)

وبعدما وصل إلى مدينة بعيدة وجد الناس يجتمعون قرب قصر الملك فلما سألهم عن السبب، قالوا خزينة الملك قد سُرقت.

في هذه الأثناء مر رجل يسير على أطراف أصابعه فسأل من هذا؟! قالوا هو شيخ المدينة، ويمشي على أطراف أصابعه؛ خوفًا أن يدعس نملة فيعصي الله، فقال الرجل تالله لقد وجدت السارق أرسلوني فورًا للملك..

فلمّا أتى للملك قال له إن الشيخ هو من سرق خزينتك وإن كنت كاذبًا فاقطع رأسي.

فأمر بإحضار الشيخ وبعد التحقيق اعترف بالسرقة، فقال الملك للرجل كيف عرفت أنه السارق؟

فاعلم أنه تغطية لجرم ما! قال الرجل: حينما يكون الكلام عن الفضيلة مبالغًا به.

بل إنك تعجب مما وصفه فيكتور هوغو في روايته (البؤساء) حينما قال: (عندما كان عمري أربعة عشر عاما، سرقت قطعة خبز لأكلها، فوضعوني في السجن وأعطوني خبزًا مجانيًا لمدة ستة أشهر، هذه هي عدالة البشر!!)

ذات يوم جاء الموت إلى شخص وقال له: يا صديقي اليوم يومك. فقال الشاب: لكنى لست مستعدًا. فقال له الموت: ولكن اسمك هو التالي على القائمة. فقال الشاب: لمَ لا تجلس لأحضر لك شيئًا تأكله قبل أن نذهب. فقال الموت: حسنًا، فأعطاه الشاب طعامًا فيه منوم فنام الموت فأخذ الشاب اسمه ووضعه في نهاية القائمة، وبعد أن استيقظ الموت قال للشاب: لأنك كنت طيبًا وكريما معي سوف أبدأ من نهاية القائمة (بعض الأمور لا تتغير فلا ترهق نفسك وتقبلها كما هي).

الأذكياء الواهمون

لا أدري مِن أين أتى الناس بذلك الربط المبهم بين الذكاء الفذ والفشل في الدراسة، فتجد أحدهم يتحدث بفخر وعنترية عن ولده الذي لم يوفق في دراسته بقوله: (ابني لو يذاكر شوية كان زمانه دكتور)، ليس هذا فحسب بل تجد ذلك عندما تتحدث مع أحد هؤلاء، فيقول لك في ثقة وثبات يحسد عليهما: (أنا مشكلتي أني مبعرفش أحفظ لكن دماغي حلوة في أي حاجة فيها فهم)، ولا أدري من أين أتوا بهذه الثقة والاكتشاف الدقيق لقدراتهم رغم تعارضها الظاهري مع واقعهم، وهؤلاء يتساوون في نظري مع من يقدمون أنفسهم للمجتمع دائمًا بفخر، فتجدهم متعالين بشهاداتهم العلمية ومراكزهم الاجتماعية، بل لا تسعهم المجالس لذكر إنجازاتهم العملاقة وذكائهم المفرط، بل إنك قد تسأل نفسك: ماذا لو كان العالم دون هؤلاء؟!

من المؤكد أن لكل قاعدة شواذ، وأن التعميم ليس من الإنصاف، لكن هناك فرق كبير بين الذكاء والتعلم الدراسي، فلا يكفي هذا الذكاء للتعلم الجيد ولا تكفي الدراسة للذكاء الاجتماعي، فالتعلم قد يفرض عليك سلوكيات كالانضباط والاجتهاد وحفظ المتون، وتعهدها بالمراجعة ولا يشترط أن تكون بارعًا بها، إذا كنت ممن يوجهون ذكاءهم لأمور أخرى أو لنفس الأمور!! وكذلك قد ترى أستاذًا جامعيًّا قد حصل على أعلى الشهادات والرسائل العلمية بينما لا يدري ماذا يقول عندما يكون مضطرًّا لأن يعزي أحدًا في مصابه أو أن يُطلب منه الرأي في لحظة اختيار حر، فليس كل إنسان ذكي قادر على أن ينجح في دراسته، وليس كل إنسان متعلم قادرًا على أن يتعامل بذكاء، فقد تقابل أشخاصًا لم ينالوا حظهم من

التعليم، بينما عندهم من الإلمام بأمور الحياة ما يفوق غيرهم من المتعلمين، القاعدة الذهبية في هذا الأمر هي أن ليس هناك تعلم جيد دون اجتهاد أيًّا كان مستوى ذكائك، وأن الشهادات العلمية وحدها لا تكفي لإبرازك أمام المجتمع، فالناس لا يهمهم ما درست من علوم، بل ما انطبع على خلقك وشخصيتك وإضافتك لمن حولك، وهذا هو قمة التميّز والذكاء الاجتماعي.

ولعلي أذكر في هذا الصدد ما فعله الصينيون سنة ١٤٠٠م عندما اعتقدوا أنهم أكثر شعوب العالم تفوّقًا، وأن بقية شعوب العالم ما هم إلا قبائل بربرية متخلفة تعيش على أراضي صحراوية قاحلة، وذلك الاعتقاد الخاطئ جعلهم يبنون سور الصين العظيم الذي أدى إلى عزلتهم عن العالم لقرون عاشوا فيها وَهْمَ التفوق والتميز بينهم وبين أنفسهم إلى أن تفاجئوا بما وصلت إليه الحضارة الأوروبية من تفوق وازدهار فكان ذلك درسًا لهم لا ينسى.

في أوائل القرن الماضي اشترى رجل أرضًا في الغرب الأمريكي بمنطقة يقال إنها غنية بالذهب، وأخذ معه بعض الآلات البسيطة وبدأ بالحفر بحثًا عن الذهب وبعد عدة أيام عثر على عرق ذهبي كبير بالأرض.

فرح الرجل وقال هذه هي البداية، واستمر بالحفر وهو يلحق العرق الذهبي ووجد أن العرق يزداد ثخانة وتشعبًا.

أدرك الرجل أن تلك الأرض مليئة بالذهب وقال لنفسه لا بد من أن أستثمر في أدوات أفضل وأطلب المساعدة.

وهكذا غطى الرجل مكان الحفر وعاد إلى بلدته وأخبر عائلته، وباع كل ما لدى العائلة ثم انطلق في طريق العودة.

اشترى الرجل كل ما يلزم من معدات وبدأ العمل مع أفراد عائلته، وهكذا بدأ الذهب يخرج عليهم كل يوم أكثر، حتى جاء يوم وبدأت كمية الذهب بالنقصان وبدأت العروق بالاختفاء.

هنا أدرك الرجل أن الحفريات سوف تنتهي لأن الذهب قد نفد، فما كان منه إلا أن باع كل شيء مع المنجم لشخص بسيط وبمبلغ زهيد، وعاد بما جمعه من ذهب مع عائلته، الشخص الذي اشترى المنجم لم يقتنع أن المنجم قد نفد من الذهب، ولكنه لم يكن متأكدًا، لذا استدعى خبيرًا جيولوجيًّا، ودفع له مقابل تقرير مفصل عن أماكن وجود الذهب في أرضه.

الخبير درس الحفريات السابقة ونوعية التربة ثم قال للرجل: عروق الذهب القديمة لم تنفد وإنما هي على بعد نصف متر فقط، وهناك أشلاء وآثار هدم في هذا المكان وهو ما جعل كل العروق تختفي.

حفر الشخص على بعد نصف متر من المكان الذي حدده له الخبير، ووجد ذهبًا أكثر مما وجده صاحب المنجم الأول بعشرات الأضعاف، سمع صاحب المنجم الأول بالقصة وعاد إلى المكان ليرى ما حدث.

عندما رآه صاحب المنجم الجديد توجه إليه، وقال له: أنت نادم أجابه: لا، سأله الرجل البسيط ولماذا أنت هنا؟ أجابه: جئت؛ لكي أتذكر دومًا أنني وقفت على بعد نصف متر فقط من ثروة عظيمة، وتركت هذه الثروة؛ لأني استسلمت عند أول عقبة في طريقي، هذه العقبة التي كان يمكن أن أتجاوزها لو أستعنت برأي من هو أعلم مني.

وليس أعجب من الطلاب الأربعة الجامعيين الذين قضوا ليلتهم في اللهو واللعب ولم يستعدوا للامتحان المقرر موعده في اليوم التالي، وفي الصباح

اتفقوا على خطّة ذكية للخروج من هذا المأزق فقاموا بتلطيخ أنفسهم بالوحل، وتوجهوا مباشرة إلى عميد الكلية، فأخبروه أنهم قد ذهبوا لحضور حفل زفاف بالأمس، وفي طريقهم للعودة انفجر أحد إطارات السيارة التي كانت تقلهم واضطروا لدفع السيارة طوال الطريق، ولهذا السبب فهم ليسوا في وضع مناسب يسمح لهم بخوض الاختبار في هذا اليوم، فكر العميد لبضع دقائق ثم أخبرهم أنه سيقوم بتأجيل الامتحان لمدة ثلاثة أيام، فشكره الطلاب الأربعة ووعدوه بالتحضير الجيد للاختبار، وفي الموعد المقرر للاختبار جاءوا إلى قاعة الامتحان فأخبرهم العميد أنه ونظرًا لهذا الظرف الخاص سيتم وضع كل طالب في قاعة منفصلة، ولم يرفض أي منهم ذلك فقد كانوا مستعدين جيدًا لأي سؤال قد يرد في هذا الامتحان، لكنهم تفاجئوا بأن الامتحان يشتمل على سؤالين فقط: السؤال الأول: ما هو اسمك؟ (درجة واحدة) السؤال الثاني: أي إطارات السيارة انفجر يوم حفل الزفاف؟ (٩٩ درجة)!!

لا تغتر بذكائك فهناك من هو أذكى منك دائمًا!

الرفاهية تبدأ من الروح

ذات ليلة كنت أشاهد التليفزيون، وإذا بإعلان غريب عن طرح أراضٍ للبيع كمقابر بالقرب من كارفور وعلى واجهة طريق رئيسي، وبها هواء بحري منعش، وكعادة المسوقين فإنهم يعرضون تلك النقاط كمزايا للموقع تدعو لدفع المزيد من المال للحصول عليها، ونسوا أن جميع من سيسكن تلك الأراضي أموات!! فما قيمة الرفاهية لشخص ليس به روح؟؟!!

وبعيدًا عن سذاجة الفكرة الدعائية لبيع تلك الأراضي، فإنني أجد أنها أعطت دلالة مهمة عن أن هناك أشخاصًا بيننا وعلى قيد الحياة، ولكن ليس عندهم الروح للإحساس بالمتعة والرفاهية.

لعل من أقوى الأشياء التي تعينك على تحمل الظروف الاقتصادية والاجتماعية الضاغطة هو إحساسك بحريتك وإنسانيتك وتملك إرادتك، فما قيمة المال الذي يحبس رغبتك وما قيمة الحياة إذا انقطع صوتك، وما قيمة الروح وأنت في كل يوم تجردها من طبيعتها لتلبسها ثوبًا لا يشبهها أبدًا لتجاري الحياة والأحداث والناس، نحن نطفئ أرواحنا بجمالها وإشراقها في كل يوم، ولا نكاد نتوقف عند ما يُمتع تلك الروح، ونتنفس الصعداء حتى تداهمنا الحياة لتسرقها منا بعنف وقسوة وأنانية، فما معنى أن تقضي زهرة شبابك تواصل الليل بالنهار من أجل تملك شقة لا تتعدى المائة متر، وما قيمة تلك الأيام التي تنام فيها باكيًا على ضياع فرصة أو حلم قد اقتنصه غيرك من أصحاب الواسطة والمحسوبية، ما قيمة الأموال التي لا تمثل لك إلا أرقام صامتة مجردة، وما قيمة الأهل إذا كان الرباط هو اللقب وفقط، وما قيمة الأصدقاء إذا لم تجدهم بجوارك في شدتك، وما قيمة الأيام في الغربة

والشدة والمرض، إن الشعوب التي كانت تحبس أصحاب البشرة السمراء في أقفاص بحدائق الهيومانز في أوروبا حتى عام ١٩٥٨ لم يشعروا يومًا بالرفاهية إلا عندما استطاعوا أن يتخلوا عن عنصريتهم وتبعيتهم المدمرة للكنيسة آنذاك، نحن كعرب نبحث عن الرفاهية بينما تجردنا من إنسانيتنا، وسط تلك الاستقطابات والوصايات الاجتماعية، فمن أعطى لهؤلاء الحق في أن يسرقوا حياتنا ويوجهونها كما يريدون، دعونا نشعر أننا بشر، أننا شيء مذكور، احترموا تقلبات النفس والروح والهوى، قدروا اختلافنا فهذه فطرتنا، اطرقوا أبواب القلوب برفق، فإن بها ما يكفيها، تعاملوا بذوق وإنسانية تليق بروح الله التي أودعها فيكم، لست هنا لتتعلم كيف ستعيش حياة قادمة بل أنت الآن في تلك الحياة، فالرفاهية تبدأ من الروح.

ذهب سائح إلى المكسيك فامتدح الصيادين لجودة أسماكهم ثم سألهم: كم تحتاجون من الوقت للصيد؟ فأجابوه: (ليس وقتًا طويلًا كما تظن بل بضع ساعات من النهار) فسألهم: لماذا لا تقضون وقتًا أطول وتصطادون أكثر وتربحون أكثر، فقال له الصيادون إن صيدهم القليل يكفي حاجتهم وحاجة عائلاتهم، فسألهم: وماذا تفعلون في بقية أوقاتكم؟ فأجابوه: (ننام إلى وقت متأخر، نصطاد قليلًا، نلعب مع أطفالنا، ونأكل مع زوجاتنا، وفي المساء نزور أصدقاءنا، نلهو ونضحك ونردد بعض الأهازيج).

قال السائح مقاطعًا: أنا حاصل على ماجستير في إدارة الأعمال من جامعة هارفارد وبإمكاني مساعدتكم.. عليكم أن تبدءوا في الصيد لفترات أطول كل يوم، ومن ثَمَّ تبيعون السمك الإضافي بعائد أكبر وتشترون قارب صيد أكبر.

سألوه: ثم ماذا؟ أجاب: مع القارب الكبير والربح الإضافي الذي ستحصلون

عليه تستطيعون شراء قوارب جديدة حتى يصبح لديكم أسطول سفن كبير، وبدلًا من أن تبيعوا صيدكم لشخص وسيط فإنكم سوف تتفاوضون مباشرة مع المصانع، وربما تفتحون مصنعًا لكم في المستقبل، ساعتها سيكون بإمكانكم مغادرة تلك القرية وسوف تنتقلون لمكسيكو العاصمة أو لوس أنجلوس أو حتى نيويورك، وهناك سوف يكون لكم مشاريعكم العملاقة، سأل الصيادون السائح: كم من الوقت سنحتاج لتحقيق هذا الحلم؟! فأجابهم: من ٢٠ إلى ٢٥ عام تقريبًا، فسألوه: وماذا بعد ذلك؟ فأجاب مبتسمًا: عندما تكبر تجارتكم سوف تقومون بالمضاربة في الأسهم والبورصة وستربحون الملايين، فسألوة في دهشة: ملايين؟! أحقًّا ما تقول؟! وماذا سنفعل بعد ذلك؟! فأجابهم: بعد ذلك يمكنكم أن تتقاعدوا وتعيشوا بهدوء وراحة ولا تعبئون لتقلبات الأيام، ستعيشون في قرية ساحلية تنامون إلى وقت متأخر وتلعبون مع أطفالكم وتأكلون مع زوجاتكم وتقضون الليالي في الاستمتاع مع الأصدقاء، فأجابه الصيادون: (مع كامل الاحترام والتقدير، ولكن هذا بالضبط ما نفعله الآن!! إذا ما هو المنطق الذي من أجله نُضَيّع ٢٥ سنة نقضيها شقاء؟!).

هذا لا يدعو إلى الإحباط وإهمال الطموح والأمل، بل مع هذا الاجتهاد والعمل لا ينبغي لنا أن ننسى أن نعيش!!

لذا لا تعجب عندما تعرف أن أحد أكبر المهندسين الخمسة في العالم والذي قام بتصميم جسر إسطنبول المعلق بالحبال، والذي تعبره في اليوم الواحد من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ ألف سيارة قد ألقى بنفسه في البوسفور في أثناء افتتاح الجسر مع رئيس الجمهورية فنزل ميتًا، وعندما ذهبوا إلى غرفته في الفندق

وجدوه قد ترك ورقة بها جملة واحدة!!: (لقد ذقت كل شيء في الحياة، فلم أجد لها طعمًا، فأردت أن أذوق طعم الموت).

حقيقة الأمر أننا لا نعيش الحياة بمعناها وصورتها الكاملة، بل نعيش تلك اللقطة التي وُجِدْنَا بمسرحها وتوقيتها وظروفها وأشخاصها ودوافعها، الحياة ليست قصة الخير والشر التي كنا ننام عليها في طفولتنا والذي ينتصر فيها الخير دائمًا.

بنظرة موضوعية عن الحياة ستجد أن الحياة عبارة عن رواية، كل شخص يرى أنه هو بطلها ويحاول إثبات ذلك بأي شكل، عمل أو جريمة أو أي شيء آخر، ويظن أنه بذلك سيكون هو البطل مع أن الحقيقة الرواية ليس بها بطلٌ، الرواية عبارة عن لقطات لأحداث معينة تتجمع لكي تصنع صورة جميلة، فلا تبحث عن أن تكون البطل في كل المواقف، بل حاول أن تجمع لقطات جميلة حتى ترسم صورة جميلة لنفسك في النهاية، ولأنك في النهاية ستكون ذكرى فحاول أن تكون ذكرى طيبة.

ولعل من أروع ما قيل في معنى الرفاهية ما ذكره الدكتور/ مصطفى محمود (رحمه الله) حينما قال:

(لا تصدقني إذا قلت لك إنك تعيش حياة أكثر بذخًا من حياة كسرى.. وإنك أكثر ترفًا من إمبراطور فارس وقيصر الرومان.وفرعون مصر.. ولكنها الحقيقة!!!

إن أقصى ما استطاع فرعون مصر أن يقتنيه من وسائل النقل كان عربة كارو يجرها حصان..

وأنت عندك عربة خاصة، وتستطيع أن تركب قطارًا، وتحجز مقعدًا في طائرة!

وإمبراطور فارس كان يضيء قصره بالشموع وقناديل الزيت.. وأنت تضيء بيتك بالكهرباء!

وقيصر الرومان كان يشرب من السقّا.. ويحمل إليه الماء في القرب

وأنت تشرب مياهًا مرشحة من حنفيات، ويجري إليك الماء في أنابيب!

والإمبراطور غليوم كان عنده أراجوز..

وأنت عندك تليفزيون يسليك بمليون أراجوز.

ولويس الرابع عشر كان عنده طباخ يقدم أفخر أصناف المطبخ الفرنسي..

وأنت تحت بيتك مطعم فرنسي، ومطعم صيني، ومطعم ألماني، ومطعم ياباني، ومحل محشي، ومحل كشري، ومسمط، ومصنع مخللات ومعلبات، ومربات وحلويات!

ومراوح ريش النعام التي كان يروح بها العبيد على وجه الخليفة في قيظ الصيف ولهيب آب، عندك الآن مكانها مكيفات هواء تحول بيتك إلى جنة بلمسة سحرية لزر كهربائي!!

أنت إمبراطور، وكل هؤلاء الأباطرة جرابيع وهلافيت بالنسبة لك..

ولكن يبدو أننا أباطرة غلب علينا الطمع.. ولهذا فنحن تعساء برغم النعم التي نمرح فيها، فمن عنده سيارة لا يستمتع بها، وإنما ينظر في حسد لمن عنده سيارتان. ومن عنده سيارتان يبكي على حاله، لأن جاره يمتلك بيتًا.. ومن عنده بيت يكاد يموت من الحقد والغيرة؛ لأن فلان لديه عقارات.. ومن عنده زوجة جميلة يتركها وينظر إلى زوجة جاره..

وفي النهاية يسرق بعضنا بعضًا، ويقتل بعضنا بعضًا؛ حقدًا وحسدًا.

ثم نلقي بقنبلة ذرية على كل هذا الرخاء.. ونشعل النار بألم في بيوتنا.. ثم نصرخ بأنه لا توجد عدالة اجتماعية.. ويحطم الطلبة الجامعات.. ويحطم العمال المصانع.. والحقد – وليس العدالة – هو الدافع الحقيقي وراء كل الحروب.

ومهما تحقق الرخاء للأفراد فسوف يقتل بعضهم بعضًا، لأن كل واحد لن ينظر إلى ما في يده، وإنما إلى ما في يد غيره، ولن يتساوى الناس أبدًا.

فإذا ارتفع راتبك ضعفين فسوف تنظر إلى من ارتفع أجرة ثلاثة أضعاف، وسوف تثور وتحتج.. لقد أصبحنا أباطرة..

تقدمنا كمدينة وتأخرنا كحضارة.. ارتقى الإنسان في معيشته.. وتخلف في محبته..

أنت إمبراطور.. هذا صحيح.. ولكنك أتعس إمبراطور

إلّا من رحمه الله بالرضى

وعزّ من قال: {وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}.

يُحْكَى أن هناك ثلاثة من الشباب قد سافروا إلى دولة بعيدة، وكانوا يسكنون في عمارة تتكون من ٧٥ طابقًا.. ولم يجدوا شقة فارغة إلا في الطابق الأخير، وقال لهم موظف الاستقبال: نحن في هذه البلاد لنا نظام يختلف تمامًا عن نظامكم بالدول العربية، فالمصاعد هنا لها برمجة خاصة تغلق أبوابها تلقائيًّا في العاشرة مساءً، ولا بد من حضوركم قبل هذا الموعد، لأنها لو أغلقت فإنك لن تستطيع أن تفتحها على الإطلاق.

وفي اليوم الأول خرجوا وعادوا قبل الساعة العاشرة، لكنهم تأخروا في اليوم التالي إلى العاشرة وخمس دقائق وجاءوا بأقصى سرعة كي يدركوا المصاعد قبل إغلاقها لكنهم لم يستطيعوا أن يلحقوا بها، أغلقت المصاعد أبوابها،

توسلوا وكادوا يبكون لكن دون جدوى، ولم يكن أمامهم إلا الصعود إلى الطابق الأخير مشيًا على الأقدام، فقال قائل منهم: سأقترح عليكم أمرًا جيدًا، فليقص كل منكم علينا قصة ينتهي بها بعد (٢٥) دور ثم الذي يليه حتى نصل ولا نشعر بالتعب، فوافق الجميع على الفكرة، فبدأ هو وقال لهم: سأعطيكم من الطرائف ما يجعلكم تبكون من كثرة الضحك، فقالوا: هذا ما نريده، وبالفعل قام الرجل بسرد طرائف جعلتهم يضحكون بأصوات عالية كالمجانين، ثم جاء دور الثاني فقال لهم أما فعندي لكم قصص لكنها جادة قليلًا فهل تقبلونها، فوافقوا جميعًا، فقام بسرد القصص الجادة التي تعطي دروسًا قاسية في الحياة، ثم جاء دور الثالث الذي قال لهم: لكن أنا ليس عندي إلا قصصًا مليئة بالنكد والهم، أنتم سمعتم لقصص الضحك والقصص الجادة فهل تقبلون هذا النوع من القصص في أدواركم الأخيرة، فوافقوا جميعًا، وقالوا له: إذن فلتقص علينا من هذه القصص حتى نصل مرهقين وننام مرة واحدة.

فبدأ يعطيهم من قصص النكد ما ينغص عيش الملوك! فلما وصلوا إلى باب الغرفة كان التعب قد بلغ بهم آخره، فقال لهم: وأعظم مأساة في حياتي أن مفتاح الغرفة قد نسيناه لدى موظف الاستقبال في الدور الأرضي، فأغمي عليهم جميعًا.

وهنا العبرة أن الشاب يظلّ يلهو ويلعب، يضحك ويرتكب الحماقات، أجمل سنوات العمر التي لا ينشغل فيها بطاعة أو عقل ويعيش حياته بطولها وعرضها في السنوات الخمس والعشرين الأولى من حياته، ثم ينتقل إلى المرحلة الثانية من حياته فينشغل بالزواج والعمل وتكوين الأسرة والسعي والانهماك في الحياة حتى يبلغ الخمسين، وهنا تبدأ المرحلة الأخيرة من حياته

فيبدأ النكد، تعتريه الأمراض وينشغل بالتنقل بين العبادات والمستشفيات ليداوي جراح الأيام التي أنهكته، ولتظهر أمامه مسئوليات ثقيلة لا ترحم شيبته، فهذه طلقها زوجها، وهذا قام بقطيعة أخيه، وكل ذلك يحتاج إلى تدخل هذا الأب الحكيم الرحيم، حتى إذا جاء موعد الموت تذكر أن المفتاح الذي يحتاج له (مفتاح الجنة) كان قد نسيه في الخمس والعشرين الأولى من حياته، فجاء إلى الله مفلسًا.

في رحاب المستريحين

مثل العديد من الحيوانات تحرص ذكور القطط على شرب كميات كبيرة من الماء ليس عطشًا فقط، ولكن لتحتفظ بفائض في مثانتها لتترك رائحتها في مناطق سيطرتها ونفوذها إعلانًا للسيادة وتحذيرًا للغرباء، ومناطق النفوذ تلك تعني هيمنتها على الطعام والإناث في حيز جغرافي محدد، يتجول فيه الذكر ويبول دومًا في كل مكان ليؤكد أنه هنا، ويتشمم أيضًا جنبات مملكته؛ ليرصد أي رائحة غريبة قد يتركها أي ذكر آخر ليستعد له ويبحث عنه ويقتنصه في التو والحال، ولأن القطط كائنات حذرة للغاية بطبيعتها فإن حركاتها تتم ببطء وترقب، وتساعدها في ذلك أدوات إدراكها الحساسة التي تمنحها القدرة على الاستشعار القوي عن بعد لتجنب أي مفاجأة، ويعزز ذلك تكوين باطن قدميها ذي الوسائد والفراغات الهوائية التي تمكنها من التسلل بخفة دون ضجيج فضلًا عن أذنيها المهيئة لالتقاط أي ذبذبات صوت مهما كانت ضعيفة من أي اتجاه، وتركيب عيونها الفريد القادر على الملاحظة والاكتشاف والاستجابة الأسطورية برد فعل لحظي لأي حركة بالإضافة إلى رشاقتها الكبيرة في الانقضاض أو الهروب!

وبينما كان القط الغريب متحصنًا بفحولته يأكل في اطمئنان من أرض غير أرضه على ما يبدو، وبينما كان القط مشارفًا على ملء معدته ظهر في الأفق الذكر صاحب السلطة على المكان، وعندما رمق غريمه الغريب توقف لحظة ثم مضى يتسلل ببطء شديد نحوه إلا أنه توقف مجددًا وانتصب شعر فروته واعوجت رقبته وحرك ذيله بعنف وعصبية معلنًا عن غضبه وثورته، وبدأ يقترب في ثبات وهمة، في ذلك الوقت نهض الغريب القوي من مكانه دون

أن يبارحه، ورفع يديه يلعقها تعبيرًا عن الشبع دون اكتراث لدعوات الحرب، واستدار قليلًا ليدفع بقدميه ما تبقى من الطعام قبل أن يبارِح المكان متفاخرًا منتشيًا.

وكأنه يقول له لقد شبعت ولست بحاجة إلى الصراع معك، أما أن كنت مصرًّا على الصراع، فعليك أن تثبت ذلك بقطع المسافة بيني وبينك، أما أن كنت جائعًا فتناول ما تبقى من هذا الطعام الذي دفعته بقدمي!

هذا الصراع الذي انتهى قبل أن يبدأ، الآن مؤجل إلى حين لا محالة، ومن أسباب عدم اشتعال الصراع في هذه الجولة أن الغريم أتم مهمته في السطو وأحرز الشبع الذي كان يريده وأن القط صاحب السلطة في هذا المكان كان جيدًا في تقدير قوة غريمه وتقديره للحدود الجغرافية لسلطانه التي تحول دون اجتيازه لها ليكمل الصراع على أرض غير أرضه، وعليه أن يتجنب غفلته في إهمال توقيعه دومًا على كل ما يمتلكه في المستقبل، لأنه لو كان قد فعل ذلك لما تجرأ غريب من السطو على ممتلكاته.

هذا يحدث في عالم البشر أيضًا، إلا أن البشر بطيئو التعلم، ولا تسعفهم قدراتهم على اكتشاف الخطر، ولايهتمون بالحذر ممن اعتاد الغدر.. وفقط يلومون الحظ والقدر.

لا يمر أسبوع على الأكثر إلا وقد ظهر لنا "مستريح" جديد يستولي على أموال المواطنين بحيلة جديدة، ورغم تكرار هذه الأخبار يومًا تلو الآخر، إلا أن الناس لا تتورع عن تجرع هذه الصدمات التي قد تودي بقوت بيوتهم وشقاء أعمارهم في لحظة، المواطن الذي يقرأ أخبار "المستريحين" وجرائم النصب في صفحات الحوادث ومواقع التواصل ويقابلها بالضحك والسخرية من سلوك الضحايا وثقتهم في النصابين، بعد فترة ما يتحول هو

نفسه لضحية بعد إغرائه بالربح الكبير السريع، ليكون رقمًا جديدًا من أرقام ضحايا "المستريحين".

وإذا تأملنا تلك الأحداث المختلفة سنجد قاسمًا مشتركًا واضحًا فيها جميعًا ألا وهي "ثقافة الطمع"، سواء طمع "المستريح" نفسه الذي يجمع من المواطنين "تحويشة العمر" بذكاء ودهاء محكم ويهرب في لمح البصر، وربما تصل ثرواته لمليارات الجنيهات، مثل "مستريح المنيا" الأخير الذي جمع أكثر من اثنين مليار جنيه وفقًا لروايات الأهالي، أو ثقافة الطمع من المواطن نفسه الذي يلقي بـ"تحويشة العمر" بين يدي المستريحين أملًا في الحصول على فوائد ضخمة، ثم تتبخر أحلامه مع هروب المستريح والاستيلاء على تحويشة العمر؛ ليبكي وقتها نادمًا وليعض أصابع الندم على ضياع ثروته.

"مستريح المنيا" و"مستريح طنطا" لن يكونا آخر المستريحين ولا أجشعهم، طالما هناك أشخاص لا يكفون عن الطمع الزائد والمستمر، المستريح يفكر مرة والضحية يغفل مرة، وبين هذا وذاك تحدث الكارثة.

ظاهرة "المستريحين" تستحق أن تنال نصيبها من التشريعات القانونية، وكذلك ينبغي أن تعد لها حملة وخطة أمنية وإعلامية واسعة، فالقانون الحالي لا يدين "المستريح" المقنن الذي أخذ جميع ضماناته من الضحية حتى لا يستطيع الوقوف أمامه في المحاكم، ينبغي أن يكون هناك تجريم واضح وصريح لفكرة "التحايل" إن ثبتت بالأدلة والشهود، وفكرة أن القانون لا يحمي المغفلين حمت الكثير من النصابين والمستريحين من المثول أمام القضاء لملاقاة مصيرهم، فليس هناك الوعي الكافي لدى الناس لكشف تحايل هؤلاء المستريحين.

السادة المتعصبون.. مهلًا!

أجد نفسي مدفوعًا للتعليق على بعض مظاهر هذا الحدث الكبير والذي نجده يتكرر كل خمس سنوات بنفس الطريقة المملة ونفس البهرجة الزائفة، شعارات قومية ودينية واجتماعية وحزبية لاستمالة الجماهير، لقد عاش الشعب عقودًا طويلة ينتخب النائب الذي يحضر حفلات الزفاف ومراسم العزاء ويجامل الناس بشخصه، ولقد جلست طويلًا لأجد السبب الذي يجعل من المجامل ميزة ترشحه ليكون نائبًا عن الشعب يشرع قوانينه ويحاسب حكوماته ويخدم أبناء دائرته، فلم أجد دافعًا إلا أشياء كلها من قبيل إحسان الظن بالرجل دون التطرق لأي أمور أخرى، وعلى امتداد دورات متعاقبة انحاز الناس لانتخاب الأقوى، الأقوى سياسيًّا وحزبيًّا وتنظيميًّا وأسريًّا، لم يمتنع الشعب عن تعاطي الشعارات التي كانت تدغدغ مشاعره، فبين يمين ينادي بتطبيق الشريعة التي ستحاسب الفاسدين وتعيد للشعب حريته، وبين يسار ينادي بحقوق العمال الكادحين وحقهم في الحياة الكريمة وتزويدهم بكافة أشكال الدعم، فضلًا عن أن الناخبين لم يستطيعوا يومًا أن يتملصوا من عصبيتهم للعائلة والقرية والأهل في انحيازهم للنائب الذي يقع الاختيار عليه، وكان الثمن ما نراه من فساد مالي وإداري وتشريعي، ومن يعجز عن كل ما سبق فإنة يسرع بإعطاء لقب لنفسه بأنه (نائب الغلابة)، أمور كثيرة يجب إلقاء النظر عليها في هذا الشأن، لكن ما أريد التركيز عليه هو مبدأ واحد فقط قد يختصر علينا الكثير من هذا اللغط، في الدول التي تحترم إرادتها يتقدم النائب ببرنامج تفصيلي للشعب عن دوره الرقابي والتشريعي والخدمي، أنا نائب عن دائرة كذا بها من المشكلات كذا وكذا وأنا أستطيع أن أفعل كذا ولا أستطيع أن أفعل كذا

لأسباب كذا وكذا، ولكني سوف أسعى من واقع منصبي، هناك من التشريعات التي تحتاج لإعادة نظر كذا وكذا واقتراحي فيها كذا وكذا، هناك فساد قائم في منظومة كذا وكذا، والطريقة الأمثل هي كذا وكذا، منشور صغير واضح المعالم تستطيع من خلاله قراءة أفكار المرشح وتستطيع فيما بعد محاسبته على برنامج تنفيذي واضح المعالم ومجدول بأولويات وتوقيتات معينة، كفانا الشعارات المنتقاة الفضفاضة التي تستقطب قلوب البسطاء، نريد نواب للعمل وليس للكلام، كفانا ما مضى من سرقة لهذا الكرسي، الذي يتحول إلى منصب للمجاملات والأمجاد الشخصية للنواب وذويهم ولا يستفيد الشعب بشيء يذكر.

ولعل من أكبر الأخطاء التي يتم ارتكابها تلك التي يتم بها اختيار أصحاب المناصب التنفيذية العليا بالمؤسسات العامة، فإذا لم تتدخل اعتبارات أخرى في تلك العملية، فعادة ما يتم ترشيح من هم أقدم سنًّا حسب الدرجة الوظيفية، وما إلى ذلك، ليصبح الرجل فجأة على صلاحيات كبيرة في إدارة مؤسسته بعد أن كان موظفًا تقليديًّا لسنوات لا يعبأ بشيء إلا بتوقيع الحضور والانصراف ليضمن راتبه نهاية الشهر، وإذا انتزعت منه النزاهة والمصداقية، فإنه يسخر المؤسسة بأكملها لخدمة مصالحه، هو وذووه، ولهذا فإن مثل تلك المؤسسات لن تتقدم يومًا وستظل عقيمة روتينية إلى الأبد إذا استمرت هكذا، وأعني بالمناصب التنفيذية أمثال مديرى المستشفيات والمدارس والضرائب ومديريات المياه وقطاع الكهرباء والضرائب وغيرها، هؤلاء يا سادة لا بد وأن يكون لهم رؤية، فالقائد الذي يفتقد الرؤية يدمر المؤسسة التابعة له، وتلك الرؤية والقيادة تكون من الصفات الملازمة للشخص طوال الوقت ولا تكتسب بالتقادم، مدير المؤسسة ينبغي أن

يمتلك الرؤية والإبداع، وأن تمنح الصلاحيات للموظفين لإدارة الأقسام ولا توضع كل الصلاحيات لشخص واحد، الدول والشركات الكبرى في العالم تطورت بفضل من يمتلكون الرؤية وليس من يمتلكون الأدوات فقط.

وعندما نقوم بالإشادة أو النقد لأداء وظيفي معين أيًّا كان فإن ذلك لا ينبغي أن يقاس بالنوايا المحتملة لهم، فأنا أتعجب كثيرًا من تقييم الناس لبعض ممن تولوا مسئولية معينة بمنطق (اذكروا محاسن موتاكم) أو (له ما له وعليه ما عليه)، وكأن التاريخ والبلاد والعباد والذمة والضمير لا حق لهم عليه، اذكروا محاسن موتاكم عندما تتحدث عن فرد في عائلتك أو بلدك لم يتحمل مسئولية أمة أو لم يتحكم بكلمة في مصير وطن، و(له ما له وعليه ما عليه) تلك العبارة الدبلوماسية الفضفاضة التي تَجُبُّ معها كل الأخطاء حتى وإن كانت عن عمد، عندما نتحدث عن شخص كان في موضع المسئولية فلا ينبغي أن نقيمه بهذه الطريقة، لأن الأجيال القادمة ستبحث عنه وستحكم عليه دون رحمة، سيظل ما فعله من خير أو شر شاهدًا عليه أمام الأجيال، سيبحثون عن إنجازه أو فساده فيما يرونه أمامهم بالسياسة والاقتصاد، بمرافق الصحة والتعليم والنقل والإسكان والطرق والكباري وغيرها، ولأن لغة الأرقام هي الأصدق والأدق والأقرب للحقيقة، ولأن المواقف دائمًا أصدق من الكلمات، فهذه أفضل طريقة لتقييم تجربته وهو ما نود أن نراه قريبًا من الباحثين والمثقفين المنصفين.

وإلى المتعصبين للمذاهب الدينية على اختلاف درجاتها، علينا أن ندرك أنه من المسلَّم به أن الكفر والشهادة من الأمور التي لا ينبغي القطع بثبوتها، ولا يعلم بها إلا رب العالمين، وفي اللغة العربية قالوا إن ما لا تستطيع إثباته لا يمكنك نفيه، فالإيمان الذي هو عكس الكفر لا نستطيع إثباته فكيف لنا أن ننكره، فحتى الأحاديث التي من قبيل (إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد

فاشهدوا له بالإيمان) هي أحاديث ضعيفة وبعضها منكر، لكن يؤخذ بها في فضائل الأعمال، وقديمًا قالوا عن القرى التي بها زراعة (كفور) مثل كفر الشيخ وكفر الناصرية وكفر السودان وغيرها لأن الزرع كان يغطيها، فكلمة "كفر" كما وردت في أغلب المعاجم العربية تعني "غطي"، فتقول كفر الشيء أي غطاه، فمثلًا كانوا يقولون قديمًا كفر الليل بظلامه أي غطى ضوء النهار وحجبه، ومن ثم كانوا يقولون عنه ليل كافر أي مغطى بالسواد، فالكفر أمر مستتر في قلوب الناس لا يعلم به إلا رب العالمين.

وهنا يأتي السؤال المهم: لماذا تاب الله على آدم (وتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه)، ولم يتب على إبليس الذي قال (أأسجد لمن خلقت طينًا)، ذلك لأن الله اطلع على قلب آدم فوجده (أنساه الشيطان ذكر ربه) وتلك غفلة تأتي للجميع، بينما إبليس تَكَبّر أن يسجد لآدم لأنه خلق من نار وآدم من طين، فالأول عاصٍ والآخر كافر، وسيدنا أبو بكر عندما سألوه عن الإيمان قال: (ما وقر في القلب وصدقه العمل)، أي أن الإيمان أو عكسه (الكفر) لا بد أن يستقر في القلب أولًا ومن ثَّم يأتي الفعل.

وعندما مات أحد الصحابة في إحدى الغزوات سارع الناس لرسول الله وقالوا له: (هنيئًا له الجنة) فرد عليهم: (كلا، والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أخذ يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارًا)، فمن ظنوا أنه قد مات شهيدًا منعمًا في الجنة اشتعل نارا في (تلفيعة!) أصابها قبل توزيع المغانم في يوم خيبر.

علينا أن نتعود أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، ننكر السلوك، ونترك مصير الناس لخالقهم، فهو الأعلم بهم وبقلوبهم، خاصة فيما يتعلق بالحكم عليهم بالكفر أو الشهادة، وكما جاء في الحديث القدسي عن رب العزة أنه

قال: (من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر لفلان، فإني قد غفرت له وأحبطت عملك).

كل ذلك لمن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، أما الإلحاد فهو إنكار لوجود الخالق والجحود بجميع الأديان والكتب السماوية، ولا تجوز معه تلك المقارنات، فالإلحاد كفر بواح لا رجعة فيه ولا تأويل معه، فمن يعلن الإلحاد فكأنما أعلن الكفر.

ولا شيء يعلو فوق إرادة رب العالمين، فنفس المجتمع الذي كان يعاقر الخمر علنًا في المدينة كف عنها بوحي إلهي في يوم واحد، فما إن نزلت آيات التحريم إلا وغرقت شوارع المدينة بالخمور، لم يدفع المجتمعات للكف عن معاقرتها قوانين أمريكا لمنع الخمر، ولكن كفتها عبارة واحدة في كتاب رب العزة حينما قال (فهل أنتم منتهون)، الضمير البشري لا يتسق مع القهر بقدر اتساقه مع التوجيه الإلهي واحترام حريته وإنسانيته، تغيير سلوك المجتمعات لا يأتي عنوة، ولا يقوده قهر بشري، فإجبار الناس على الفضيلة يخلق جيوشًا من المنافقين، فمن ذا الذي ما ساء قط، ومن له الحسنى فقط، الفضائل لا بد أن يتجرعها الناس من خلال قدوة مخلصة معتدلة، الشعوب لا تخدع كخداع الأفراد، فمتى انقلبت الشعوب على صادق، ومتى خذل الناس شريفًا، فرسول الله وهو في مجتمع جاهلي وجد من ينصره ويؤازره؛ لأنه يحمل رسالة النبل والأخلاق وكانت أولى كلمات هذه الدعوة من فم السيدة خديجة التي قالت له: (والله لن يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الدهر)، هكذا تقود القدوة البشر وهكذا تبقى رسالة الأخلاق هي الموجهة للرسالات السماوية، ويكفي أن النبي صلى الله عليه وسلم جمع رسالته قاطبة في أنها رسالة أخلاق حين قال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

يحكي نيلسون مانديلا رئيس جنوب إفريقيا السابق في مذكراته قائلًا:

(بعد أن أصبحت رئيسًا طلبت من بعض أفراد حمايتي التجول معي داخل المدينة مشيًا على الأقدام، دخلنا أحد المطاعم فجلسنا في أماكننا وطلب كل منا ما يريده من طعام، في الوقت الذي كنا ننتظر العامل أن يحضر لنا الطعام وقع بصري على شخص جالس ينتظر بدوره ما طلبه، قلت لأحد أفراد حمايتي "اذهب إلى ذلك الرّجل واطلب منه أن يأتي ويشاركنا الأكل على طاولتنا).

جاء الرجل فأجلسته بجانبي وبدأ كل منا في تناول طعامه، كان العرق يتصبّب من جبينه ويده ترتجف لا تقوى على إيصال الطعام إلى فمه!!!).

بعد أن فرغ الجميع من الأكل وذهب الرجل في حال سبيله قال لي حارسي الشخصي: الرجل الذي كان بيننا تظهر عليه علامات المرض فقد كانت يداه ترتجفان ولم يستطع الأكل إلّا الجزء القليل.

فأجبته:

لا أبدًا ليس كما ظننت، هذا الرّجل كان حارسًا للسّجن الانفرادي الذّي كنت أقبع فيه، وفي أغلب الأحيان وبعد التّعذيب الذّي يمارس عليّ كنت أصرخ وأطلب قليلًا من الماء.

فيأتي هذا الرجل ويقوم بالتبول على رأسي في كل مرة، لذلك كان يرتعد خوفًا من أن أعامله بنفس ما كان يفعل معي فأقوم بتعذيبه أو بسجنه.

لكن ليست هذه أخلاقي فعقلية الثأر لا تبني دولة في حين عقلية التّسامح تبني أمم.

قراطيس الطعمية

في أثناء حديثي مع أحد رواد النشر عن طريقة تسويق الكتب صفعتني عبارته العفوية: (يا باشمهندس مستحيل الكتاب يخسر، لو معرفناش نسوقه هنبيع الكتب بالكيلو لبتوع الطعمية؟!).. فبعيدًا عن أنك ترى بعينك عصارة أفكارك وإلهاماتك قد اختلطت بزيت الطعمية الأسود، ليقدم للناس في قرطاس محكم خشية أن يتساقط منه بعض حبات الطعمية الملتهبة ليكون مصيره بعد دقائق إلى سلات القمامة، لكني كنت أكثر تفاؤلًا عندما تذكرت أن أبرز المقالات والأخبار التي قرأتها كانت من قراطيس الطعمية، بل إن هناك من الناس من قرأ منها أكثر مما قرأ من الكتب والصحف اليومية، والغريب أن بهذه القراطيس سحر لا يمكن مقاومته فتجد عندك فضول شديد لقراءة ما تحويه هذه الورقة المتشبعة بالزيت وبالفتات الذي تبقيه الطعمية، وبهذه الطريقة العبقرية يكون الناشر قد نجح في الترويج للكتاب الذي اعتلى رفوف المكتبات لسنوات دون أن يطرق بابه أحد، وأعتقد أنها وسيلة ساحرة لخبراء التسويق لإعادة النظر في استخدام وسائلهم باهظة الثمن دون التطرق لهذه الوسيلة البسيطة ذائعة الصيت، ذكرني ذلك بخبر قرأته قبل شهور أن هناك بائعًا للطعمية بمحافظة الشرقية قد ذاع صيته وصار مقصدًا للسيدات في كل صباح، وكان السبب في ذلك أنه يقوم بعمل قراطيس الطعمية في أوراق قضايا محكمة الأسرة الذي نجح في الاستحواذ على ٢٠٠ ألف ورقة منها، وجدت من خلال ذلك أن قرطاس الطعمية هو الأكثر نفوذًا وتأثيرًا في قلوب وعقول المصريين، وكأننا نقدم غذاء لعقولهم مع غذاء البطون الذي اعتادوا عليه كل صباح، بل إنك ستنجح في تسويق كتابك ببراعة إذا استطعت أن تتعاقد مع صاحب (عربية فول).. ففي

الثامنة من صباح كل يوم تجد عنده صفوة المجتمع من موظفين ومستشارين ومحامين ومهندسين وطلاب قد قصدوا عربته واقفين مزدحمين في انتظار إفطارهم المعتاد بالبدل الرسمية والعطور الفخمة، بل تجد أحدهم متجردًا من (برستيجه) الذي يحاول دائمًا إظهاره عندما تراه ينادي على البائع بعفوية مطلقة: زود بصل ولمون هنا يا باشا!!

فكان لزامًا عليّ أن أعتذر لذلك الناشر العبقري الذي ظننت به ظن السوء، فقد وجدت لقرطاس الطعمية سحرًا لا تحويه أرفف المكتبات أو أجنحة المعارض.

الانتظار القاتل

دائمًا ما كنتُ أتعجّب من أن جزءًا كبيرًا من عذابِ أهل الأعراف يوم القيامة في الانتظار، فهل الانتظار عقوبة؟!

الانتظار في رأيي هو ذلك الأسلوب الخفيّ الذي يحمل في طياته جميع الرسائل السلبية لمن ينتظر كالتجاهلِ والمللِ والضيقِ وغيرها، على أعتاب الانتظار تندثر الأشواق وتتبلد المشاعر وتذهب المودة إلى غير رجعة، لا يمكن أن تكون للحياة لذة مع كل هذه التأخيرات المرهقة، سواء كان ذلك على مستوى العلاقات الشخصية أو الأحداث اليومية، فكثيرًا ما تسبب التأخير في ضياع الكثير من الفرص الثمينة التي لن تعود مرة أخرى، فدائمًا ما أُومِنُ بأنّ لكلّ فرصة وقتها المناسب لاقتناصها ومع مرور الوقت يصبح الأمر أكثر صعوبة.

في مقابلة مع بيل جيتس مؤسس شركة مايكروسوفت وأغنى رجل في العالم، سألتة مقدمة البرنامج: ما هو سر نجاحك؟ فأعطاها شيكًا عليه توقيعه البنكي، وقال لها: لكِ مطلق الحرية في كتابة المبلغ الذي ترغبين به فهو لك!! فاندهشت وقالت: أنا لا أقصد هذا سيدي، ثم عرضت عليه السؤال بطريقة أخرى، فأعطاها الشيك مرة أخرى فرفضت أن تأخذه فمزق الشيك ثم قال لها: سر نجاحي هو أنني لا أضيع الفرص كما فعلتِ أنتِ الآن، كان من الممكن أن تكوني أغنى إعلامية في العالم لكنكِ رفضتِ، فكرتْ قليلًا وسألته: هل من الممكن أن تعاد الحلقة؟! فردّ عليها: بالتأكيد! ولكن الفرصة لن تعود مرة أخرى!

أتعجب من تلك المؤسسات التي تختبر صبر عملائها من خلال دفعهم

للانتظار لأوقات طويلة لإنجاز أعمالهم، فعلى أبواب العيادات يهدر المرضى ساعات طوال في انتظار العرض على طبيبهم المفضل، وفي صالات انتظار البنوك والمؤسسات الحكومية والشركات التي تتعامل مع الجمهور ترى العجب وتتنفس الصعداء مع كل عميل يمضي ليقترب دورك من الوقوف أمام الموظف المرتقب، ومن المؤكد أن هذه ليست الطريقة المثلى، فلماذا يأتي آلاف العملاء في طوابير انتظار أمام عدد محدود جدًّا من الموظفين، بينما نستطيع من خلال موقع إلكتروني خدمة الملايين في نفس التوقيت، وتكون مراجعة تلك المنشآت في أضيق الحدود.

ولعل من أغرب ما جاء في هذا الصدد ما قام به أحد العلماء النفسيين عندما طلب من أحد المحاكم السماح له بإجراء تجربته العلمية على أشخاص محكوم عليهم بالإعدام فوافقت المحكمة وقدمت له أحد السجناء، وكانت التجربة تقوم على شق وريد السجين من يده اليمنى ثم جَعْل الدم يقطر في وعاء خاص له؛ ليعرف كم من الوقت يحتاج السجين حتى يموت، وكم من الدم سيحتاج لتنتهي حياته، ثم قام العالم بشرح التجربة بالكامل للسجين، وما هي الحالات التي سيصاب بها السجين بعد خروج دمه بكميات كبيرة (خاصة أنّ التجربة ستتم والمريض معصوب العينين)، وبعد وقت قصير من بدء التجربة بدأ السجين يتغير لونه ويشعر بالتعب والإرهاق ثم أغمي عليه وتوفي!! المفاجأة هنا أنّ التجربة نفسية، فقد قام العالم بشق يد السجين فعلًا، لكنه أوقف النزيف بعد لحظات ثم أحضر أنبوبَ ماء يجري مع نفس المكان الذي كان

يجري به الدم، ليسمع السجين صوتها قطرة وراء قطرة ظنًّا منه أنها من دمه فمات على الفور!

إنه الانتظار الذي يقتلنا قبل الوصول!!

هنا أدركت كيف يمكن أن يكون الانتظار عقابًا مؤلمًا لمن سيقفون على جبل الأعراف بين الجنة والنار يوم القيامة منتظرين مصيرهم.

الوجه الآخر للغرب

هناك ثمة مبالغة في وصف الغرب بالمثالية الكاملة مع جلد الذات في كل ما تنتجه المجتمعات الشرقية من فكر وسلوك، ولعل أحد أسباب تلك النظرة القاصرة الخاطئة ما صدّرته لنا البعثات الأجنبية المتعاقبة من نظريات عن براعة الغرب ومثاليتهم، وتبعهم أنصاف المثقفين الذين استقوا هذا الفكر دون تدقيق ودون أن يكونوا مُلِمِّين بالحضارات التاريخية الموجودة عندنا والتي أسست لأي تقدم علمي أو اجتماعي بالدول الغربية فيما بعد، وأخص بالذكر ما تركه علماء العرب والمسلمين من تراث ضخم في جميع العلوم.

سأل المفكر والفيلسوف الفرنسي –روجيه غارودي– المفكر الجزائري –مالك بن نبي– عام ١٩٤٧ قائلًا: لماذا الحضارة الغربية مستمرة بينما الإسلامية انتهت؟! فأجابه بن نبي: (لأن في ثقافة الغرب فجوة كبيرة تمر عليهم دون أن يلتفتوا إليها، لذلك فأنت تحكم بهذا الحكم وتقول هذا الكلام، فأنت منذ طفولتك تدرس أن الحضارة بدأت في أثينا واستمرت ستة قرون كاملة إلى أن وصلت روما، وانتهت في القرن الخامس الميلادي، ولو وضعت هذا المقياس على محور التاريخ سترى أن تلك الثغرة كانت ما بين ٤٥٠ إلى ١٤٥٣ أي ما يقارب الألف عام، أنتم تعتبرونه فراغًا تاريخيًّا كبيرًا، ولكنها هي بالضبط الحضارة الإسلامية، فلو عزلنا الحضارة الإسلامية أو الحضارات القديمة عن الحضارة الحديثة، لا يمكن أن يكون لهذه الحضارة من أسس تقوم عليها فيما بعد إلا إذا كان بالإمكان أن تقوم الحضارة على العبث!!).

يقول بن نبي: استحى غارودي من سؤاله حين أجبته بهذه الإجابة، وأقر بوجود ذلك الثقب المعرفي في رأسه حتى وهو يحمل أعلى الدرجات العلمية.

وقد جاء ذلك الإقرار في وصيته الفلسفية التي كتبها بعد ثمانية وثلاثين سنة من سؤاله لبن نبي عام (١٩٨٥) تحت مسمى: (مذكرات القرن العشرين) التي يقول في الفصل الأول منها: (أنهيت دراستي الفلسفية وحصلت على كل الدرجات ليسانس، الأستاذية، دكتوراة الدولة، مع بقائي في جهل مطبق بالفلسفات غير الغربية).

وما قام به مالك بن نبي سنة ١٩٤٧ بمثابة سد الثقب المعرفي في رأس غارودي وإن لم يقر بالفضل في ذلك لمالك، ومنذ ذلك الوقت وعقل غارودي يمتلئ شيئًا فشيئًا بالإسلام إلى أن أعلن الشهادتين عام ١٩٨٢.

لك يا سيدي أن تتخيل أنه قد تم إحراق مليون كتاب عربي في ساحة باب الرملة بالأندلس في يوم واحد بقيادة الملك فرديناند وزوجته الملكة إيزابيلا، وهو ما عرف وقتها باسم محاكم التفتيش.

إضافة إلى أنه قد نقل عن المؤرخ الإسباني دربلس أن ما أحرقه الإسبان من كتب الأندلس مليون و ٥٠٠ ألف مجلد، كلها عربية، وفي كتاب "صناجة الطرب في مقدمات العرب" أن الكاردينال الإسباني المسمى شيمنز أمر بحرق ٨٠ ألف كتاب في ساحة مدينة غرناطة بعد ظهورهم عليها سنة (٨٩٨ هـ). وفي كتاب "وفيات الأسلاف وتحية الأخلاف" أن أسقف طليطلة وحده أحرق من الكتب الإسلامية العالية ما يزيد على ٨٠ ألف كتاب. وقد فعل الصليبيون شيئًا من ذلك عندما احتلوا بعض الديار العربية؛ وقد أورد العلامة محمد كرد علي في كتابه "خطط الشام" واحدة من هذه المصائب فقال: "ومن أهم النكبات التي أصيبت بها الكتب: نكبة

طرابلس لما فتحها الصليبيون، وإحراق صنجيل أحد أمرائهم كتب دار العلم فيها، وأخذ الصليبيون بعض ما طالته أيديهم من دفاترها، وكتب خاصة في بيوتهم، واختلفت الروايات في عدد المجلدات التي كانت في خزانة بني عمار أو دار حكمتهم في طرابلس، وعلى أصح الروايات أنها ما كانت تقل عن ١٠٠ ألف مجلد، وأوصلها بعضهم إلى ألف ألف، وبعضهم إلى أكثر".

أما ما فعله المغول التَّتَر في كتب العرب والمسلمين عندما استولوا على ديارهم، فقد أورد خالد السعيد تفاصيل حرقهم وإغراقهم لكتب بيت الحكمة في بغداد عام ٦٥٦هـ، وهي أكبر مكتبة في العالم، ويدل الوصف على كثرة الكتب التي رميت وأغرقت في نهر دجلة حتى قال البعض إنه سد مجراه، واسود لونه من مداد (حبر) الكتب. ولم يحدث الأمر في بغداد فقط، بل في مدن أخرى؛ فحينما تحدث ياقوت الحموي عن مدينة ساوة قال: "مدينة حسنة بين الري وهمذان، سنية شافعية، فجاءها التتر الكفار الترك، فخبرت أنهم خربوها وقتلوا كل من فيها، ولم يتركوا أحدًا، وكان بها دار كتب لم يكن في الدنيا أعظم منها، بلغني أنهم أحرقوها".

يضيف خالد السعيد مبحثًا ليس في نطاق بحث الحزيمي المختص بالتراث العربي، وهذا المبحث بعنوان "حرق المكتبات عند غير المسلمين"، ويورد فيه ٢٧ مكتبة كبيرة وعامة تم حرقها من قبل الأمم وأهل الأديان الأخرى، كما يتحدث عمّا عاناه علماء الأمم والأديان الأخرى من مضايقات سلطتهم السياسية والدينية، وما جرى على كتبهم من حرق وإتلاف. يتبين لكل من درس تاريخ الكتب أن العرب كانوا أحرص الأمم عليها وعلى تأليفها وجمعها وعلى تأسيس المكتبات، وفتحها لسائر الناس كي يستفيدوا

منهم. كما يتبين أن الصليبيين والمغول والعثمانيين قد حاربوا الكتاب العربي حربًا لا هوادة فيها، وكل هذا من حماقتهم، فالخسارة ليست على العرب وحدهم بل هي عامة تشمل الإنسانية، فالمعرفة لا تقتصر على أمة بعينها، بل تشمل البشر جميعًا. كما يتبين أن بعض الأسباب السابقة التي أدت إلى إتلاف الكتب لا تزال قائمة حتى اليوم، ولذلك نسمع بين يوم وآخر عن عالم أو كاتب أو سياسيّ قام بإتلاف كتابه أو مذكراته وفي كتاب "كتب تحترق.. تاريخ تدمير المكتبات" من تأليف الكاتب الفرنسي لوسيان بولاسترون، وصدر بالفرنسية في باريس عام ٢٠٠٤، وترجمه إلى العربية هاشم صالح، ومحمد مخلوف، وصدرت طبعته العربية الأولى عام ٢٠١٠. ويقع الكتاب في ٤٦٣ صفحة، ذكر الناشر أن هذا الكتاب يسطر تاريخ العمليات الكبرى لتدمير المكتبات منذ الصين في عهد سلالة كينج وصولًا إلى الكوارث المعاصرة، من حريق الإسكندرية إلى التهاب سراييفو عام ١٩٩٢، مرورًا بروما، وكتيزيفون، وبغداد "جنكيز خان"، ثم شرور محاكم التفتيش، ثم الثورة الفرنسية!!

أما عن السرقات العلمية وحقوق الملكية الفكرية والإنتاج العلمي والفكري والثقافي فَحَدِّث ولا حرج، حتى إن أعظم النظريات العملية التي انتسبت لعلماء غربيين قيل إنها قد سرقت من كتب العرب والمسلمين!!

لك أن تتخيل أن علم الاجتماع قد نسب تأسيسه إلى دوركايم اليهودي الفرنسي، بينما الذي اكتشفه وأسس نظرياته هو العلامة المسلم ابن خلدون!!

كما وُجِدَ في كتاب روجر بيكون فصلٌ كاملٌ (الفصل الخامس) منقول من

كتاب المناظر لابن الهيثم العالم الموسوعي المسلم، وذلك دون أن يشير إطلاقا إلى المؤلف الأصلي للمادة العملية!!

وكان شائعًا أنّ بيكون هذا هو مؤسس المنهج العلمي الحديث، دون الاعتراف بأن المسلمين هم أول من اكتشف ذلك ومنذ قرون، وقد اعترف بذلك جوستاف لوبون صاحب كتاب "حضارة العرب" حينما قال: "وينسب إلى بيكون على العموم أنه أول من أقام التجربة والترصد، وهما من أُسس المناهج العلمية الحديثة، ولكنه يجب أن يعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم، وقد أيد هذا الرأي جميع العلماء، الذين درسوا مؤلفات العرب".

وحتى قوانين الحركة التي نسبت لإسحاق نيوتن سرقت من عالمين مسلمين هما: ابن سينا، وهبة الله بن ملكا، المعروف بأوحد الزمان!!

وتقول المستشرقة الألمانية "زيغريد هونكه" في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب): "إن ما قام به العرب المسلمون هو عمل إنقاذي، له مغزاه الكبير في تاريخ العالم". لقد طور المسلمون بتجاربهم وأبحاثهم العلمية، ما أخذوه من مادة خام عن الحضارات السابقة ولم ينقلوها كما هي بل شكلوه تشكيلًا جديدًا، فالمسلمون في الواقع، هم الذين ابتدعوا طريق البحث العلمي الحق القائم على التجربة. إنهم مؤسسو الطرق التجريبية في الكيمياء والطبيعة والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلثات، وبالإضافة إلى عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفردية في مختلف فروع العلوم والتي سرق أغلبها ونسب لآخرين، لقد قدم المسلمون أثمن

هدية، وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهدت أمام الغرب طريقة لمعرفة أسرار الطبيعة).

في إحدى حلقات سلسلة عالم المعجزات التي يقدمها التليفزيون الألماني (قناة RTL الألمانية) تناول البرنامج موضوعًا هامًّا وحيويًّا يتعلق بالحضارة الإسلامية وتأثيرها على العالم خاصة في مجال الاكتشافات والعلوم، والمذهل أن هذا الفيلم يعترف بالتقدم العلمي الكبير الذي شهدته الحضارة الإسلامية!

وجاء في هذا التقرير على لسان أحد الباحثين الذي قال: "قبل ألف سنة تقريبًا كان العالم الإسلامي متطور لدرجة كبيرة، بينما كانت أوروبا تعيش في حالة تخلف وجهل، فالمسلمون وضعوا المؤلفات العلمية والاكتشافات والاختراعات، في مجال الطب كان المسلمون يتبعون الطرق العلمية والأدوية ويجرون عمليات جراحية، بينما الغرب كان يتبع أسلوب السحر والشعوذة للشفاء.

في مجال الهندسة اخترعوا ساعات دقيقة جدًّا وأساليب حربية متطورة، أول فكرة للصاروخ، وأول فكرة للدبابة، أول شفرة سرية، وأول أسلوب لقفل سري يعمل بالشفرة وهكذا، والشيء المميز أن علماء المسلمين كانوا يعتمدون أسلوب التوثيق العلمي، فكانوا يضعون اسم المرجع الذي اعتمدوا عليه في كتبهم.

الشيء الذي فعله الغرب ببساطة – كما يقول الباحث الألماني في الفيلم – إنهم سرقوا هذه العلوم بعد انهزام المسلمين، وطمسوا أسماء المؤلفين ونسبوا هذه العلوم والاكتشافات والاختراعات لأنفسهم، يتابع الباحث: "إنها أكبر عملية سرقة في تاريخ العلم"!!!

علماء كثر أخذوا اكتشافات المسلمين ونسبوها لأنفسهم... أسهل طريقة لسرقة العلم أن تأخذ الكتاب وتعيد نسخة حرفيًّا.. ولكن تمحو اسم المؤلف الأصلي وتضع اسمك عليه بدلًا منه!!).

يقول المفكر الإسلامي الدكتور/ محمد عمارة –رحمه الله–

– في أحد المجالس، التفت أحد المدعوين العلمانيين تجاهي، وخاطبني مستهزئًا، وقال:

– هل أفهم من كتاباتك أنك تريد تطبيق أحكام الشريعة والعودة بنا إلى الوراء؟

– فأجبته متسائلًا:

– هل تقصد بالوراء يعني نحو ١٠٠ سنة، عندما كان السلطان عبد الحميد الثاني يحكم نصف الكرة الأرضية؟

أم عندما كان ملوك أوروبا يحكمون شعوبهم بتفويض من السلطان العثماني؟

أم قصدك إلى الوراء أكثر زمن حكم المماليك، الذين أنقذوا العالم من المغول والتتار؟

أم إلى الوراء أكثر عندما حكم العباسيون نصف الأرض؟ أم إلى الوراء أيام الأمويين؟

أم قبلهم سيدنا عمر الذي حكم أكثر الكرة الأرضية؟

أم قصدك عندما بدأ هارون الرشيد رسالته إلى ملك الروم نقفور.

من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم..؟

أم إلى زمن عبد الرحمن الداخل، الذي طوّق جيشه إيطاليا وفرنسا؟ هذا سياسيًّا.. أم إن كان قصدك علميًّا عندما كان علماء العرب مثل ابن سينا والفارابي وابن جبير والخوارزمي وابن رشد وابن خلدون إلخ، يعلّمون العالم العربي والغربي الطبّ والصيدلة والهندسة والفلك والشعر؟!

أم قصدك كرامة.. عندما عبث يهودي كافر بعباءة امرأة فصاحت وامعتصماه، فجرّد المعتصم الجيش وطرد اليهود من أرض الدولة، بينما النساء اليوم تُغتصب اغتصابًا والحكام مسرورون؟!

أم قصدك عندما أنشأ المسلمون أول جامعة تعرفها أرض أوروبا في إسبانيا؟ ومن وقتها أصبح الزيّ العربي «العباءة» هو لباس التخرج في كل جامعات العالم، ولليوم وقبعة التخرج مسطّحة، لأنه كان يتم وضع القرآن فوقها في احتفال للتخرج.

أم قصدك لما كانت القاهرة أجمل مدينة بالعالم؟

أم عندما كان الدينار العراقي يساوي ٤٨٣ دولارًا؟

أم عندما كان الهاربون من أوروبا الفقيرة يتوجهون إلى الإسكندرية؟

أم عندما طلبت أمريكا من مصر إنقاذ أوروبا من المجاعة؟

منتظرك تشرح لي قصدك، وتخبرني كم تريد أن نرجع إلى الوراء؟

خدعوك فقالوا!!

هناك اعتقاد خاطئ بأن علم التنمية البشرية وحده كافٍ للتطور والإنجاز، وهذا من أكبر خدعات هذا العصر، (أنت قوي، أنت تستطيع، اصنع مجدك الآن، حقق حلمك الآن،........) وكأن الأحلام والأمجاد توهب بالكلمات الحماسية والدورات الاستباقية، حتى إنك تجد أن بعض رواد هذا المجال لم ينجزوا شيئًا في حياتهم ويحثون الآخرين على ذلك، كما أنني أجد ارتباطا غريبًا في دمج هذا المجال بعلم الإدارة، فتجد المؤسسات يطلقون عليها (إدارة الشئون الإدارية والموارد البشرية)، وهو ارتباط – في نظري – يقلل من أهمية كلا المجالين، لأن التنمية البشرية من المفترض أنها تخلق في الإنسان روح التألق والإبداع، ليس بالكلمات فقط، وإنما بالتجارب والخبرة والاحتكاك، وهو ما يتعارض مع الرتابة التي عهدناها عن الشئون الإدارية بأي مؤسسة، من الواجب إذن الفصل بين هذين التخصصين ودعم التنمية البشرية حتى تكون قادرة على ضبط الإدارة فيتم الاستفادة منها.

فلم يكن لرواد العلم والثقافة هذا العلم قبل عقدين من الزمان، كما أن إسهامات هذا العلم في تطوير الحياة العملية تكاد تكون منعدمة إذا ما قورنت بالتغييرات المبنية على التجارب والدراسات والقناعات والخبرات الحياتية.

إذا بحثنا في الأمر بشيء من الدقة والتعمق، سنجد أن التنمية البشرية ليست علمًا معترفًا به في أي جامعة على مستوى العالم، وإنما هي اجتهادات واقتباسات من علوم أخرى كعلم الإدارة أو علم النفس أو علم الاجتماع، وبالطبع فإن تلك الاجتهادات والاستنتاجات لم تخضع لتقييم أو مراجعات

علمية دقيقة، وهي في النهاية ليست حقائق مسلم بها وتبقى في نطاق النظريات والافتراضات، فقد تصلح لشخص أو مجتمع ولا تصلح لآخرين، وكل مدرب أو متحدث يتحدث عن تجربته الشخصية، وكأنها الحقيقة المطلقة المسلّم بها!

كما أنها تقدم عددًا من الرسائل السلبية دون قصد، منها أنك يجب أن تكون ناجحًا متفوّقًا مبهرًا ثريًّا رائدًا للأعمال مثل أصحاب هذه التجارب وإلا ستكون فاشلًا مهملًا مقصرًا، وهو ما يجعل الناس غير متقبلين لظروفهم وتقصيرهم وضعفهم تجاه هذه المهام التي قد تكون ثقيلة في نظر أحدهم.

ويكونون غير مؤهلين لفكرة أن النجاح ليس بالضرورة أن تكون ثريًّا أو رائدًا للأعمال، فقد يكون نجاحك في تربية أبنائك أو تقديم الخير للناس، كما تقدم للمتلقي مادة توحي له بأنه المتحكم الأول والأخير في مصيره دون النظر إلى اعتبارات أخرى كالقدر والغيب والتوفيق وكلها من عند رب العالمين، والمصير الأول والأخير بيده وما نحن إلا عوامل وأدوات لهذا القدر.

جاور من يؤمنون بوجودك ويعطونك قيمتك ويرفعون من قدرك، من يغزلون خيوط الود من أجلك ويفتحون في روحك نوافذ من نور، من إذا فرحت بسطوا قلوبهم لتقام سعادتك، وإذا حزنت هبوا يقاتلون الحزن لأجلك، من يقولون لك: أنت تستطيع وفي وسعك أن تضيء العالم، يكفي أن يؤمن بنورك شخص واحد حتى تسطع كالشمس.

هب أن زجاجة عطر قد سقطت وانكسرت وتناثرت في كل مكان بالغرفة، وحزنت عليها حزنًا شديدًا لكنك كلما دخلت إلى غرفتك فإنك تشم رائحة العطر بعباقته وجماله، وصرت تتعجب قائلًا: هذا العطر لم يكن يعبق في

أرجاء الغرفة من قبل هكذا حينما كان بداخل الزجاجة، فتعلمت ساعتها أنه ربما تفوح رائحة الإنسان عند الانكسار فيظهر الصبر الجميل والخلق القويم، فعند هذا الانكسار تأكد بأن الله قد أراد أن يخرج شيئًا جميلًا وقر في قلبك، فتتعلم خبرة جديدة وتتغير طريقة تفكيرك وتصنع كيانًا يليق بك.

ليست المثالية التي ستصنعك يا صديقي، فالمثالية سجن أنصحك ألا تدخله حتى لا تعيش طوال عمرك بين قضبانه، كن أنت بنجاحك وقوتك وانكسارك وفشلك، ولا تخجل من سقطاتك وهفواتك ولا تسعى لإرضاء الآخرين فإنك بذلك تطلب المستحيل!

المثالية أو الكمالية هي لص بارع يسرق منك فرحتك وثقتك بنفسك وقدرتك على الإنجاز، يسرق منك شغفك، يسرق منك السلام الداخلي والتصالح مع الذات وقبولك لنفسك، يسرق حتى قدرتك على التطور والتقدم، يجعلك تحمل ثقل العالم على كتفيك، يضع المزيد من المسئوليات على رأسك، لتصبح في النهاية ضعيف غير قادر على فعل أي شيء، تشعر بثقل كل شيء صغير وإن كان عديم الوزن، هوّن على نفسك يا صديقي، ويكفيك أن تكون متصالحًا مع نفسك وحاملًا لنيّات الخير لك ولمن حولك. مصدر ألم هؤلاء هو أنهم يضعون أنفسهم تحت ضغط شديد، يخبرون أنفسهم أنهم إذا قاموا بإنجاز الكثير من الأمور فهذا سيعلي من قيمتهم، أما إذا أخفقوا فهذا يعني أنهم لا شيء حرفيًّا، يجلدون أنفسهم بأنفسهم باعتقادات خاطئة، والسبب أنهم قاموا بربط إنجازهم للأمور أو عدم تقدمهم بقيمتهم الذاتية وهذا غير صحيح بالمرة، وأيضًا الاهتمام بتوقعات وآراء الآخرين مصدر آخر للألم والمعاناة، ففي كثير من الأحيان يضع هؤلاء المثاليون أنفسهم في قوالب معينة حتى لا يخالفون توقعات المجتمع،

الأصدقاء، الأسرة، رؤوساء العمل، لا يهم بالنسبة لهم هل هذا القالب يناسبهم أم لا، المهم هنا هو أنهم لا يخالفون الصورة التي يضعها لهم الآخرون، لا يسمحون لأنفسهم بالاستمتاع بتفردهم بكونهم هم، هم وفقط، لا يسمحون لأنفسهم بمعايشة واختبار تجارب حياتية مختلفة بعيدًا عن القوالب التي يضعها لنا المجتمع والآخرون، إنهم يريدون تحقيق الكمال والدقة في كل شيء، ولكن هذه الدقة تخلق تعاسة كبيرة لأنفسهم، في النهاية يبنون هذا الجدار من الألم، هذا الكهف من البؤس، هذا الحمل النفسي الثقيل، ويعيشون حياتهم في قمة الحزن والمعاناة. إذا أردنا أن نشعر بالحب والانتماء، فيجب علينا أن نؤمن بأننا نستحقه كبشر وليس كمثاليين ربطوا قيمتهم الذاتية بنجاحهم في الحياة وإنجازهم للأعمال وشهرتهم، ابحث عن الشغف في داخلك وفي من يؤمنون بك ودع للضعفاء تعويض ذلك بالسعي وراء وهم المثالية الكاذب.

سحر التفكير الكبير

عندما أعطاني موظف الاستقبال تذكرة الكشف بأحد المستوصفات، ذهبت إلى صالة الانتظار حتى يأتي دوري لأدخل إلى الطبيب، وخلال تلك الدقائق شاهدت برنامجًا مسليًّا كان يعرض على الشاشة عن (البقر)، اكتشفت ولأول مرة وعبر هذا البرنامج، أن البقرة لم تعد حيوانًا!! إنها آلة تستقبل الطعام وتنتج لنا اللبن، وأن لديها خططها الإنتاجية، ولديها مديرها الآلي الذي يعتبر عملة مماثلًا تمامًا لأي عمل آخر في الاقتصاد العام، وهو زيادة الإنتاج مع قلة التكلفة، إن (البقرة) تقوم بخدمتها بطريقة دقيقة وتامة، ولكن باعتبار أنها لم تعد (بقرة).

وبالمقارنة العفوية البسيطة قلت في نفسي: وما هو الفرق إذن بين تفكير الإنسان إذا ما تم مقارنته بتفكير البقر؟؟!!

لو تَمَعَّنَّا في أنواع العلوم التي تدرس بالجامعات سنجد أن هناك فرعين رئيسَيْنِ لتلك العلوم (العلوم النظرية والعلوم التطبيقية) وهناك بون شاسع بين تلك الأنواع، فالعلوم النظرية كالفلسفة وعلم النفس والاجتماع والتاريخ والعلوم التطبيقية كالطب والهندسة والصيدلة، العلوم النظرية تعتمد على السرد والاستدلال والتأمل والاستنتاج وغيرها من تلك المعاني، أما العلوم التطبيقية، فإنها تقول لك تصرف حالًا، هب أنك طبيبًا ووجدت مريضًا دخل عليك عيادتك، وقد سال دمه من جبينه، هل ستستغرق الوقت الطويل لشرح تأثير هذا الجرح على صحته أم أنك ستسرع في البحث عن قطن وشاش وإبرة وخيط لإنقاذ الموقف، ماذا لو دخل عليك مريض بصيدليتك قد بدا عليه أعراض جلطة شديدة، هل ستحدثه عن تأثير الحالة

النفسية على تَكَوُّنِ تلك الجلطات أم أنك ستسرع لإعطائه إبرة لتسييل دمه وإنقاذه من تأثير الجلطة، ماذا لو رأيت كارثة هندسية تقع أمامك كمهندس هل ستقف لتشرح للعمال كيف حدثت تلك الحادثة، وما هو الخلل من الناحية النظرية أم أنك ستسرع لاتخاذ إجراء عملي وفوري وسريع، هذا يختلف تمامًا إذا ما حادثت مؤرخًا عن فن التحنيط عن القدماء المصريين فإنه سيقوم بسرد طويل وممل عن أُسَرِ الفراعنة وبردياتهم التي كتبت على الجدران، وربما احتاج ذلك لإسهاب وصبر لا يتحمله أحد، بل إنك قد تقضي عمرك كهؤلاء الذي أفنوا حياتهم في خلاف لا قيمة له ولا جدوى على خلق البيضة والدجاجة أيهما قد خُلِقَ أولًا؟ وهذا لا يقلل من شأن العلوم النظرية، فحتى العلوم التطبيقية تعتمد في أساسها على أفكار نظرية، لكن ما أود الإشارة إليه في هذا الموضع هو الأداء نفسه، هذا هو الفرق بين النظرية والتطبيق، وبين الشخصيات النظرية والعملية، وتلك هي الحياة تأبى إلا أن تكون عملية وناجزة وحاسمة.

يقول (جاك ما) أغنى رجل في الصين:

أسوأ أناس قد تتعامل معهم؛ هم ذوو العقول الفقيرة، أعطهم شيئًا مجانيًّا سيقولون هذا فخ، أعطهم فرصة مشروع برأس مال قليل سيقولون إنه ليس مشروعًا حقيقيًّا، ولن يدرّ عائدًا كبيرًا، أعطهم فرصة مشروع برأس مال كبير سيقولون ليس لديهم المال الكافي لاستغلال الفرصة، وإذا قلت لهم جربوا شيئًا جديدًا سيقولون ليس لديهم خبرة، قل لهم جربوا تجارة تقليدية، فسيقولون إنها صعبة وليس لديهم وقت، وإذا أعطيتهم فرصة تجارة إلكترونية سيقولون إنها هرمية ووهمية، في الواقع هم يفكرون أكثر من تفكير بروفسور جامعي، وينتجون لأنفسهم أقل من شخص أعمى.

فقط اسألهم: هل باستطاعتكم فعل شيء جديد ومختلف غدًا لتحسين وضعكم؟ سيجيبون لا نعلم.

ذوو العقول الفقيرة يفشلون بسبب شيء واحد، لأن حياتهم عبارة عن انتظار، ينتظرون الفرص ولكن لا يخوضون في أي تجربة طوال حياتهم.

كان هناك صاحب شركة صغيرة تكاثرت عليه الديون وأغلقت في وجهه كل الأبواب وأوشك على الإفلاس ورفضت البنوك أن تقرضه، وذات يوم ذهب ليجلس بعيدًا وحيدًا حاملًا همومه، وإذا برجل مسن يقترب منه، وسأله عن حاله بعدما لاحظ عليه علامات البؤس والاكتئاب، فإذا بالرجل العجوز يقول له: "أعتقد أني قادر على حل مشكلتك".

وأخرج شيكًا وقلمًا وكتب فيه مبلغًا وأعطاه له، وقال له: "سأقابلك هنا بعد عام حتى ترد لي ما أخذته مني وتركه ورحل".

وإذا بصاحب الشركة يفتح الشيك ليجد المبلغ المكتوب به ٥٠٠٠٠٠ دولار، بإمضاء چون دي روكفيلر أحد أغنى الرجال في العالم.

وبعد تفكير عميق وخوف من عدم سداد هذه المبالغ إذا قام بصرف الشيك وسداد ديونه، قرر أن يحتفظ بالشيك في خزنته ويحاول مرة أخيرة وإذا فشل فسوف يقوم بصرف الشيك.

وفعلًا بدأ صاحب الشركة في إيجاد حلول لمشكلاته، وقام بسداد كامل ديونه دون الاستعانة بالشيك.

مرت سنة وقرر الرجل أن يذهب لإرجاع الشيك إلى چون دي روكفيلر وهو سعيد بإنجازه، وعندما هم بإخراج الشيك إذا بممرضة تمسك بچون دي روكفيلر بقوة وهي تقول له: "أخيرًا وجدتك هنا". وتأسفت لصاحب

الشركة، وقالت له: "أرجو ألا يكون قد أزعجك هذا المريض فأنا الممرضة المسئولة عن حالته، هو دائمًا ما يهرب من البيت و يدعي أنه چون دي روكفيلر الملياردير المشهور وأخذت المريض ومضت".

وقف صاحب الشركة مذهولًا يقول لنفسه: سنة كاملة أبيع واشتري وأعقد صفقات وأحل مشكلات مستعصية اعتقادًا مني بأن ظهري محمي بنص مليون دولار.

هذا الرجل لم تنقذه الأموال التي كان يبحث عنها، ولكن الشخص الجديد الذي ولد بداخله والذي أشعره بالثقة لمجرد أنه مؤمن، والتصرفات التي قام بها هي نفس التصرفات التي كان يستطيع أن يقوم بها دون اقتراض أموال من أحد.

لم أرَ من الناجحين شخصًا أتى على ورود الرفاهية بل دفع لها دفعًا مجبرًا كأن لا بديل له عنها.

كانت هناك شركة ضخمة لديها أكثر من ٧٠٠٠ موظف، وفي عام ٢٠٠٨ وخلال الأزمة المالية العالمية ألغيت ٣٠٪ من صفقاتها في يوم واحد، لم تستوعب الشركة هذا القدر الكبير من الموظفين بهذه المرتبات المرتفعة، وكانوا مجبرين على توفير ١٠ ملايين دولار من المصروفات.

اجتمع مجلس الإدارة وقرر فصل بعض الموظفين، ولكن (بوب شابمان – الرئيس التنفيذي للشركة) رفض الفكرة، وظل يفكر لفترة طويلة، وعرض عليهم فكرة سترضي الجميع وتتمثل هذه الفكرة في أن يقوم كل موظف (من أصغر عامل بالشركة إلى رئيس مجلس الإدارة) بأخذ إجازة إجبارية لمدة ٤ أسابيع دون راتب وذلك في أي وقت يريده، وليس شرطًا أن تكون تلك الأسابيع متتالية!!

وأجمل ما في الأمر هي الطريقة اللي أعلن بها رئيس الشركة البرنامج، فقد قال للموظفين:

"It's better that we should all suffer a little, than any of us should have to suffer a lot".

بمعني:

(الأفضل أن نعاني جميعًا القليل، بدلًا من أن يعاني بعضنا الكثير).

عندها استشعر العاملون بالشركة الأمان والثقة، ومن كان منهم لدية المزيد من المال أخذ ٥ أو ٦ أسابيع إجازة، ومن كان أقل قدرة أخذ أسبوعين، وهكذا!!

بل جاءت المفاجاة أن الشركة قامت بتوفير ٢٠ مليون دولار بنهاية تلك الأزمة، أي ضعف الرقم المطلوب، ولم يتم فصل موظف واحد من الشركة!!

لمّا الكوفيد ينام!

أعتقد أن فكرة التعايش مع فيروس كورونا أثبتت فشلها الذريع، الأمر كارثي وأشبه بالإبادات الجماعية في القرون الوسطى، الوباء يحصد الأرواح يوميًّا بلا رحمة والجهود العلمية والصحية ضئيلة جدًّا في مواجهة توحش هذا الفيروس اللعين، والقادم سيكون أكثر رعبًا إذا استمرت نفس السياسات في التعامل مع هذا الوباء القاتل، حتى اللقاحات التي تم تصنيعها مؤخرًا بها الكثير من المخاوف والشكوك حول فاعليتها وأعراضها الجانبية، إضافة إلى أنها ما زالت في طور التجريب.

لست متخصصًا في هذا المجال حتى أعطي رؤية كاملة أو تصورًا من الممكن أن يؤخذ به حول هذا الأمر، إلا أنني متأكدًا أن الوضع الحالي ليس هو الوضع المثالي.

الناس أصبحت تتعامل مع الفيروس على أنه كائن مزاجي ينام بالنهار حيث نذهب لأعمالنا ويستيقظ ليلًا ليجوب الشوارع وحده في أوقات الحظر، ولا يتورع الناس عن الإفراط في السخرية فيتعانقون أكثر ويسلمون بحرارة أكثر وكأن شيئًا لم يكن.

ولا أنسى قصة ذلك الشخص الذي كان مصابًا بالكورونا، وبينما هو بسيارة الإسعاف في طريقه للحجر الصحي إذا به يقفز من السيارة يريد الهرب، فقام الناس بالالتفاف حوله والقبض عليه وتسليمه لطاقم التمريض المرافق له مرة أخرى!!!

بل تعجب من ذلك البائع الذي جاب الشوارع مناديًا: (يا منور البلكونة.. ومحمر المكرونة.. وقاتل فيروس الكورونا يا توم)!! بل تبارى المنجمون والمشعوذون وأصحاب محلات العطارة في إعطاء وصفات وهمية للقضاء

على الفيروس، فوصفةُ الخل والتوم هذه قد تكون مناسبة لعمل طبق ملوخية شهي على مائدة العشاء، وليس للقضاء على فيروس عجز العالم عن مواجهته.

ولم تنفصل تلك المشاهد الساخرة عن الواقع المؤلم الذي عاشه هؤلاء الذين انقطع عنهم الأكسجين في غرف العناية المركزة والأطباء الذين كانوا في المواجهة المباشرة وخط الدفاع الأول وتعطل حركة الملاحة الدولية والأسر الكاملة التي راحت ضحية هذا الفيروس اللعين.

لقد توقف العالم وخلت الشوارِع من البشر وأغلقت المحلات واختفت معالم الرفاهية والحضارة كل يوم من الخامسة مساء في مواجهة التطور العلمي والذكاء الاصطناعي وأحدث أنظمة تكنولوجيا الاتصالات الرقمية في مشهد درامي مفاجئ أظهر عجز الإنسان المفرط وعدم قدرته على استيعاب ومواجهة الحدث بما يليق.

ولعل من أشهر من تنبئوا بظهور مثل هذا الفيروس الدكتور/ أحمد خالد توفيق الذي قال في سلسلة سافاري: (الكابوس الذي يطارد علماء الفيروسات في العالم كله هو أن يعود وباء إنفلونزا عام ١٩١٨ الذي أطلقوا عليه اسم (الوباء الإسباني) إلى الظهور.. لقد فتك هذا الوباء بثلاثين مليونًا من البشر، أي أكثر من ضحايا الحرب العالمية الأولى، وعمليًّا لم ينج إنسان على ظهر الكرة الأرضية من الإصابة به سواء كانت شديدة أو خفيفة. قاتلة أو غير قاتلة..

أين يجتمع الخنزير والدجاجة؟.. طبعًا عند كل فلاح صيني.. كل فلاح صيني يخفي في حظيرته مختبرًا خطيرًا للتجارب البيولوجية، وفي هذه الحظيرة تنشأ أنواع فيروسات فريدة لم نسمع عنها من قبل..

ولهذا لا نسمع عن أوبئة الإنفلونزا المريعة إلا من جنوب شرق آسيا حتى صار للفظة (إنفلونزا آسيوية) رنين يذكرنا بلفظة (طاعون)..

لكن د. (شرودنج) و(بارتلييه) يعرفان جيدًا أن الوباء الحقيقي المرعب قادم لا شك فيه.. سيبدأ من مكان ما في الصين أو (هونج كونج).. ساعتها لن يكون لنا أمل إلا في رحمة الله، ثم البيولوجيا الجزيئية وسرعة تركيب اللقاح).

ورغم أنني لست دائمًا مع نظريات المؤامرة وأقتنع أكثر بالدلائل العلمية والواقعية، فإنني لا أستبعد وجود مؤامرات تحيط بهذا الأمر، كورونا فيروس قديم ومعروف، ونعلم أنه اكتشف للمرة الأولى عام ١٩٦٠، وكان يسبب أمراضًا تنفسية مألوفة، حاله في ذلك حال أي فيروس، سعال وزكام، وربما إسهال وحمى!

فلو تأملنا بعض الواقع الذي حدث خلال السنوات الماضية؛ فإننا سنجد معطيات غريبة تدعو للتأمل، فعلى سبيل المثال ذكرت منظمة الصحة العالمية أن هذا الفيروس قد ظهر للمرة الأولى في السعودية عام ٢٠١٢ في الجمل.

ويقصدون بذلك أغنى مرحلة في أغنى دولة في أثمن ما يملكون، فما هو الهدف من ذلك؟!

والأكثر غرابة أنه بمجرد أن أعلنت مصر قبل سنوات اكتفاءها الذاتي من الدواجن إلى درجة تصديرها للخارج أي أنها لن تقوم باستيراد الدجاج الأمريكي أو الفرنسي أو غيره، ظهر فيروس إنفلونزا الطيور فجأة وبالتحديد في مصر وعلى مرحلتين لقتل هذه النهضة في مهدها، وظل العالم تائهًا يبحث عن مصل «لقاح» لهذا الفيروس «الدجاجي» اللعين، وفجأة وبقدرة قادر تظهر شركة «ميرك شارب» كحمل وديع بيده العلاج المنتظر، وكأنها

لا تعلم شيئًا، وكأن أحد إدارييها «دونالد رامسفيلد» لا يعلم هو الآخر شيئًا، ويظن أن العالم لا يعلم -وربما فعلًا لا يعلم- أن دونالد هذا تولى منصب وزير الدفاع الأمريكي لمدة ٥ سنوات كانت آخر أيام توليه عام ٢٠٠٦.

فجاء هذا العسكري «المختبئ» باللقاح «المخبأ»، على صورة «تامفلو»، ليحقق هو وشركته عشرات المليارات من الدولارات من وراء إنفلونزا الخنازير اللعينة!

وقبل ذلك فعل الأمر ذاته بالصين، عندما أعلنت عن ملكيتها لأكبر احتياطي مالي بالدولار عام ٢٠٠٣ فسربوا إليها مرض السارس «ابن عم الكورونا»! ولا بد أن تدفع الدولار الذي عندك حتى نعطيك اللقاح!

وغير ذلك تجربتهم مع الجمرة الخبيثة مع الشركة ذاتها «ميرك شارب»!!! عندما تقرأ عزيزي القارئ هذه السيناريوهات فإنك ستوافقني نسبيًّا أن «كورونا» وراءها مخططًا ماكرًا يهدف إلى التحصيل المادي لا غير، فالقضية كلها معمل فيروسات وعالم كائنات دقيقة فيروسية وهندسة جينية، تنتهي بإنتاج فيروس يُرْمَى إلى الدول الغنية التي بمقدورها شراء اللقاح فيما بعد، ويرمى إما بطعام أو شراب أو حيوان أو هواء، أو ربما مستحضرات تجميلية وغيرها مما لا يخطر على بال، وفي المقابل يتم تحضير اللقاح المناسب لهذا الفيروس والاحتفاظ به حتى يصل الناس لحاجة شديدة إليه بسبب وطأة مرض هذا الفيروس المصنوع جينيًّا، وعندها فإن المريض يتعلق بأي «قشة»، ويدفع كل ما يملك ليشتري هذا العلاج المفتعل، الذي تم تصنيعه هو والفيروس في معمل واحد!!

الترند.. وحرب المهرجانات!

تربط بعض أدبيات الاقتصاد مصطلح الفقاعة التي تظهر فجأة أو (الترند) بالمعنى المعاصر مع "الهوس" الذي صاحب المضاربة على أسهم شركة "بحر الجنوب" البريطانية أوائل القرن الثامن عشر، والتي كان عالم الرياضيات الشهير "إسحاق نيوتن" أحد أبرز ضحاياها، والذي أقر فيها بعجزة عن فهم الهوس البشري رغم فكه طلاسم تحرك النجوم والكواكب في مداراتها.

هل تخيلت يومًا ماذا سيكون رد فعلك إذا طلب أحدهم منك القفز من فوق قمة جبل عالٍ، أو حتى قيادة سيارتك وأنت معصوب العينين؟! بالتأكيد ستقول: "بالطبع لا، وبلا تفكير أو تردد".

أنت محق، الجميع سيتفق معك في ذلك، فقط إن كنا لا نزال في عصر ما قبل منصات التواصل الاجتماعي، الآن قد لا تحتاج أن يطلب منك أحد فعل ذلك، فقط سيحثك بشكل غير مباشر وربما دون أن تعرفه، وأنت من سينفذ بملء إرادته الأمر ودون تفكير.

في صيف عام ٢٠١٤ انتشرت على مواقع التواصل الاجتماعي مقاطع فيديو لعدد كبير من الشخصيات تحت وسم "تحدي دلو الثلج"، وكانت الفكرة قائمة على أن يقوم الشخص بإحضار دلو كبيرة مملوءة بالمياه الباردة والثلج ومن ثم يصبها وبسرعة على رأسه، وانتشر هذا التحدي بعد ذلك بين الشباب في مختلف أنحاء العالم.

بدا الأمر جنونيًا في البداية، فما الذي يدفع إنسانًا عاقلًا ومتزنًا نفسيًّا – خاصة أن شخصيات عالمية في مجالات الفن والعلوم والأعمال شاركوا فيه – إلى إغراق نفسه بالمياه المثلجة واهتز مرتعدًا فور تدفق المياه إلى سائر

جسده، وبطبيعة الحال تعرض الأمر لانتقادات كثيرة، لكن في الحقيقة كانت هناك قضية أكبر وراء هذا التحدي!

حقيقة الأمر أن الترند قد تم إطلاقه في الأساس للتوعية بمرض التصلب الجانبي الضموري الذي يصيب الأعصاب، وما كان إلا عبارة عن رسالة دعم لمرضاه وللأبحاث التي تركز على وضع نهاية له، وبجانب الشق التوعويّ للتحدي كان على كل شخص أن يتحدى ثلاثة آخرين لتجربة الأمر، والتبرع لصالح الجهات المهتمة بمعالجة هذا الداء الذي يصيب الأعصاب الحركية.

بعد نحو عام من بدء التحدي الذي انتشر كالنار في الهشيم عبر منصات التواصل الاجتماعي، كان الملايين من الأشخاص قد شاركوا فيه ورفعوا مقاطع فيديو في أثناء خوض التجربة التي سجلت مليارات المشاهدات.

فيما قالت جمعية "إيه إس إل" الأمريكية التي تعمل على دعم الأبحاث ومداواة آلام مرضى التصلب الجانبي الضموري أنها قد تلقت تبرعات تقدر بمبلغ ١١٥ مليون دولار خلال ستة أسابيع فقط من انطلاق هذا التحدي، علمًا بأن ميزانيتها السنوية كانت لا تتجاوز ٢٠ مليون دولار على أفضل الأحوال!

وكان هذا الترند له رسالة سامية وهدف راقٍ لم يدع الفرصة لأي انتقاد، لذا كان من المنطق أن يشكل هذا التحدي "ترند" أو توجهًا عامًّا يسيطر على شبكات التواصل الاجتماعي، لكن هل المشاركة العامة في مثل هذه التحديات دائمًا ما تكون نابعة من الترويج لقضية أم فقط لمواكبة الترند والانسياق وراء الظاهرة كما القطيع؟!

وفي أوائل يناير ٢٠١٩، بدأ تحدٍّ جديد على صفحات التواصل الاجتماعي وهو "تحدي العشر سنوات"، والذي كان يقوم فيه مستخدم المنصة الإلكترونية برفع صورتين الفرق الزمني بينهما عشر سنوات (٢٠٠٩ – ٢٠١٩) ليظهر الفارق والتغير الذي طرأ عليه خلال هذه المدة الزمنية.

إذن، فقد كانت الظاهرة اجتماعية بشكل خالص تركز على التذكير بالأيام الخوالي ومشاركة الأصدقاء لحظات افتقدوها أو ربما لم يعاصروها مع صاحب الصورة، لكن الأمر كان يحمل في طياته توجهات أخرى كتسليط الضوء على التغيرات المناخية والبيئية والسياسية (في بعض مناطق الصراع حول العالم).

في تقرير لـ"كيه كيو إي دي"، حذّرت الشبكة الإخبارية التي تتخذ من كاليفورنيا مقرًّا لها مستخدمي شبكات التواصل الاجتماعي من أن عليهم التفكير مرتين قبل نشر صورهم بهذة الطريقة، مستشهدة برأي الاستشارية التكنولوجية "كيت أونيل".

ووفقًا لـ"كيت" فإن بيانات هذا التحدي يمكن استخدامها من قبل شركات مثل "فيسبوك" و"أمازون" لتدعيم خوارزميات التعرف على الوجوه، وهو أمر يدعم القدرات الحاسوبية للتعرف على تلك الوجوه حتى مع تقدم العمر، ما قد يدعم جهود العثور على الأطفال المفقودين حتى بعد سنوات على فقدهم، وهو أمر إيجابي دون أدنى شك، إذن أين المشكلة؟

لكن في الوقت ذاته يمكن استخدام بيانات التحدي ضد مشاركيها، فمع تحسين تقنية التعرف على التقدم في العمر، ستتطور طرق تقييم اشتراكات التأمين والرعاية الصحية، وفي حال بدا أن الشخص يشيخ بوتيرة أسرع، قد يعني ذلك أن عليه دفع مزيد من الرسوم،

وربما الحرمان من الخدمات وكل هذه معلومات تباع لأكبر الشركات المختصة بذلك.

وأشارت "كيت" إلى التداعيات السلبية التي نتجت جراء بيع "فيسبوك" بيانات عشرات ملايين المستخدمين إلى شركة "كامبريدج أناليتيكا"، والتي وظفت هذه البيانات لخدمة الحملة الانتخابية لرئيس الولايات المتحدة الحالي "دونالد ترامب" في ٢٠١٦.

ونصحت "كيت" مستخدمي الإنترنت بتوخي الحذر فيما يتعلق بالألعاب والحملات الإلكترونية التي تدفع الناس للمشاركة فيها بطرق خاصة وغير تقليدية، ورغم رفض الكثيرين لحجتها باعتبار أن أغلب المقارنات تمت باستخدام صور موجودة بالفعل على شبكات التواصل الاجتماعي، ردت "كيت" بأن جمعها معًا يسهل عملية الوصول إلى البيانات ورصدها.

البعض أيضا تخوف من مسألة تعقب وجوه المستخدمين إلى ما هو أبعد من شبكات التواصل الاجتماعي، وبيع بيانات التتبع تلك إلى الحكومات لمراقبة مواطنيها، وبحسب "فوربس" تقدم ائتلاف مكون من ٨٥ مجموعة ومنظمة بطلب إلى شركات مثل "مايكروسوفت" و"أمازون" و"جوجل" للتوقف عن بيع تقنيات التعرف على الوجوة للحكومة الأمريكية.

وقالت المجموعة: "نحن في مفترق طرق مع تقنية تعقب الوجوه، وستحدد الخيارات التي ستتخذها هذه الشركات ما إذا كان على الجيل القادم خشية مراقبة لصيقة من الحكومة في أثناء مشاركته في الاحتجاجات أو الذهاب لأماكن العبادة أو عيش حياته بشكل طبيعي وبسيط".

هناك أيضًا تحدٍّ قديم آخر لكنه ما زال مستمرًا، أودى بحياة العشرات حول العالم رغم بساطته، وهو تحدي "السيلفي" أو التقاط الصورة بكاميرا الجوال الأمامية، وكشفت دراسة نشرتها صحيفة "ذا ويك" البريطانية في أكتوبر/ تشرين الأول الماضي، عن أن محاولات التقاط صور السيلفي الغريبة وغير التقليدية أودت بحياة ٢٥٩ شخصًا منذ عام ٢٠١١ إلى ٢٠١٧.

وتبين أن السببين الرئيسين للوفيات هما الغرق وحوادث النقل، وشملت الحوادث مقتل شابة تايلندية في أثناء التقاطها صورة أمام قطار مسرع، وصُعق آخر بالكهرباء فوق أحد القطارات، فيما أطلق شخص النار على نفسه بالخطأ في أثناء التقاط صورة السيلفي، وسقط زوجان بولنديان وطفلاهما من على حافة منحدر عندما حاولا التقاط صورتهم الخاصة.

ولعل الحادث الأخير للزوجين يشبه كثيرًا أحد الرسوم الكاريكاتيرية الذي انتقد ظاهرة تحديات مواقع التواصل الاجتماعي، ويظهر فيه شخصان على حافة جبل أحدهما يقول للآخر ما رأيك أن تقفز من هنا، فيرد الآخر: "مستحيل أن أفعل"، ليعيد الأول الطلب بصيغة مختلفة وهي "تحدي القفز عن الحافة"، وهو ما دفع الثاني للقفز على الفور!!

وعلى المستوى المحليّ، ما إن يطفو (ترند) معين لأيام قليلة حتى يعاود (مهرجان) من المهرجانات الشعبية ليطفو على السطح، وكأنه يعبر عن طبيعة المرحلة كلها.

أنا شخصيًّا لا أختلف مع هذا النوع من الفن (إن جاز التعبير) ولا مع مقدميه ولا مع جمهوره، ولا أختلف حول كون هذا النوع من الأغاني حلال أو حرام إلا فيما يقره علماء الدين.

ولكني أتوقف هنا حول معنى أعمق بكثير وهو ما جاء على لسان من

يقدمون تلك المهرجانات حينما قالوا: (دا أكل عيش، وحرام إن الناس تقطع عيشنا وعيش الناس اللي بتشتغل معانا وتسفيد مننا).

ولا يعلمون أن بكلماتهم العفوية البسيطة هذه قد استطاعوا أن يعبروا بوضوح عن جوهر رسالتهم وهي الانتفاع من أي شيء مختلف حتى وإن كان مؤذيًا لأسماع الأسر في بيوتهم، فالغناء ليس الطريق الوحيد لأكل العيش بل هناك آلاف المصادر الحلال المتاحة بعيدًا عن إزعاج البيوت بموسيقى رديئة وألفاظ خارجة، البعض سيعارضني وسيقول إن هذا النوع من الأغاني هو ما يريده الناس، والدليل على ذلك ملايين المشاهدات التي يحظى بها هؤلاء المطربون على مواقع التواصل، ورغم اتفاقي مع هذا الأمر إلا أنه لا يعتبر مبررًا لأن تقدم تلك الأغاني للعامة على شاشات التليفزيون ومواقع التواصل، فقديمًا كانت هناك تجمعات ومسارح لكل نوع من الأغاني فهذا المكان لعشاق الطرب وذاك للأغاني الشعبية والآخر للأغاني الوطنية، أسمعك تقول كيف تقول هذا الكلام في عصر قنوات التواصل التي وصلت حتى المناطق النائية من العالم، سأقول لك إن المجتمعات حتى تحافظ على نفسها لا بد لها من قيم تعزز من تماسكها فعلى الأقل ينبغي أن تلتزم تلك الأغاني بتلك القيم في صياغة الكلمات والأداء والإخراج إلى آخره، وهذه القيم ليست خاصة بدين معين دون غيره، فالأديان جميعًا تشترك في تلك القيم والمبادئ الإنسانية، فإذا لم يلتزم هؤلاء بقيم المجتمع فلا بد لهم من طريقة يتم بها تقنين وتخصيص المحتوى للجمهور الذي يريده، وإلّا فالمنع هو الحلّ الأنسبُ.

وما دامَ هذا النوعُ هو مجرد (أكل عيش) لهؤلاء فمن الممكن أن يتم توفير سبلٍ أخرى لأكل العيش، فليس من أجل أن يأكل ٥٠

شخصًا عيشهم من هذه الأغاني نضحي بتدمير المجتمع وانحراف الشباب.

ويبقى الفن شيئًا قيمًا ثمينًا إذا كان يؤدي رسالة ومعنى ويضيف للمتلقي، إما أن تقضي الساعات الطويلة ينتقل فيها سمعك من مهرجان إلى آخر دون أن تحظى بشيء سوى تلوث سمعي وضجيج بين آلات وأصوات لا تستطيع تمييز بعضها من بعض فهذا لن يضيف لك شيئًا، وهذا ما دفع الكاتب الكبير/ أنيس منصور للحديث حول تأثير الفن الصادق قائلًا:

"الأديب الروسي تولستوي هو الذي قال: إن الفن نوع من العدوى. بأن ينتقل المعنى أو الإحساس من الكاتب إلى القارئ أو المشاهد كأنه هو البطل أو كأنه واحد من الذين يعيشون في العمل الأدبي، أي ليس قارئًا ولا مشاهدًا.. وإنما هو كائن موجود بين أبطال الرواية أو المسرحية..

وأذكر أنني عندما كنت أقرأ رواية «الجريمة والعقاب»، تأليف دستويفسكي، أن البطل طالب ذهب يقتل صاحبة البيت. وصوت الباب وهو ينفتح أحسست كأنه باب غرفتي فرفعت عيني عن الكتاب ونظرت إلى الباب..

وفي رواية «الإخوة كرامازوف»، لدستويفسكي أيضا، عندما أحس أهل إشبيلية بأن المسيح – عليه السلام – يمشي في شوارعها. ويومها خرج الناس من صلواتهم في الكنائس وساروا وراءه. فذهب إليه أحد الكرادلة واقترب منة قائلًا: يا سيدنا، اخرج من هنا وإلا صلبتك باسم العداء للمسيحية، فأنت قلت لنا إن الجنة لا يدخلها الأغنياء إلا إذا دخل الجمل من عين الإبرة، مع أن الأغنياء هم الذين بنوا لك الكنائس!

واقترب من المسيح وشد ثوبه فرفعت عيني عن الكتاب وأحسست كأنه جرجرني من ثوبي!

وفي رواية «مدام بوفاري» للأديب الفرنسي فلوبير.. البطلة الرقيقة الجميلة اسمها أيما بوفاري وزوجها طبيب أرياف. يجيء وملابسه لها رائحة القش المبلل وحذاؤه قد حمل من الطين ما يوازي وزنه.. وهو عادة يجيء ويجلس على طرف السرير ويخلع حذاءه، ويكون له دوي جعلني أنظر إلى السقف في انتظار أن يخلع حذاءه!

ومسرحية «بيت الدمية» للكاتب النرويجي أبسن.. غضبت البطلة واسمها نورا وأغلقت الباب بشدة في وجه زوجها.. وفى وجه الجمهور والقرن التاسع عشر.. وكان للباب دوي القنابل حتى وضعت يدي على أذني.

وفي قصة «اللعبة الملكية» للأديب النمساوي شبشتان تسالفغ.. راح السجين يسلي نفسه فكان يسترجع كل ما حفظ من الشعر ويلاعب نفسه الشطرنج ثم راح يقول شعره بالمقلوب.. أي يرتب الأبيات من آخرها إلى أولها..

وفي مقامات الحريري قصائد كاملة تقرؤها من أولها تمامًا كآخرها.. مثلا هذا البيت:

مودتة تدوم لكل هول.. وهل كل مودتة تدوم

رفعت رأسي عن القراءة. ورحت أحاول أن أعكس محفوظاتي من الشعر. لقد نسيت أنني القارئ ولست البطل).

التسويق بالقيم

قديمًا كانوا يسوِّقون بالأساليب التقليدية كالدعاية الورقية والجدارية وغيرها، وكان يتم التركيز فيها بشكل أساسي على اسم المنتج المراد التسويق له (البراند) مع بعض المعلومات البسيطة عنه وهذا النوع كان يستنزف الكثير من المال والمجهود، ثم بعد ذلك تم تطوير الأدوات كالاستعانة بشخص للترويج للبراند المستهدف التسويق له، فتجد بعض الشركات تستعين بلاعب كرة شهير أو فنان له جمهور عريض أو رمز ديني أو سياسي معروف ليظهر في إعلان لدقائق معدودة ليروج للمنتج المستهدف، ورغم التكلفة الباهظة لهذا النوع من الدعاية إلا أن الكثير من الشركات كانت تفضله لأنه يختصر الكثير من المسافات، لكن بعض الشركات لاحظت أن الناس تتذكر النجم وتنسى براند الإعلان، فالناس يقولون إعلان (عمرو دياب) وينسون أنه في الأساس إعلان لشركة بيبسي، فتسليط الضوء على الرمز أفقد الناس التركيز في اسم المنتج المراد الترويج له، ومن هنا كان لا بد من ظهور الجيل الثالث للتسويق ألا وهو التسويق بالقيم.

فتجد إعلانًا عن شبكة اتصالات معينة تقدم خدماتها للتقريب بين الشعوب والتخفيف من أعباء المغتربين بالتواصل مع أهلهم وأصدقائهم، وكأنهم يقدمون قيمة من خلال عملهم تجذب الناس، فالناس تبحث عن القيمة داخل الأشياء قبل أن تبحث عن أسعارها.

هل تذكرون عندما كنا صغارًا نلتف حول أبائنا وأجدادنا ليحكوا لنا حكاية او قصة قصيره؟ هل تتذكرون كم كنا نتلهف على أشياء كهذه؟! الحكايات والقصص لها مفعول السحر، تثير التخيل والأفق الكبير المتسع وتربطنا

بالأبطال وتربطنا أيضا (بالراوي) إنها بلا شك أحد عناصر الجذب السرية للبشر! ولنا في شهرزاد وحكاياتها وألف ليلة ومغامراتها خير مثال.

(المسوقون هم من يخبرون الناس بالقصص) هذا هو عنوان من أشهر كتب التسويق بالعالم.

Marketers tell stories

التي ما زالت تدرس في كل معهد وجامعة حول العالم، يدربون طلاب التسويق بما يعرف بالحكايات التسويقية، فالحكايات تجعل الناس ينصتون ويتعاطفون ويقتربون، ولا ننسى أن أسلوب القصص هو أسلوب قرآني في الأساس وله صدى وتأثير كبير بالنفوس.

هل سألت نفسك يومًا لماذا تحشد "أبل" العالم إلى منتجاتها؟! بل تجعلهم يتلهفون إلى كل صغيرة وكبيرة في عالم التقنية، رغم أنها قد تكون الأعلى سعرًا بين جميع المنتجات المنافسة، أعتقد أن الأمر لا يتعلق بجودتها في التصنيع أو تطورها في التقنية بقدر براعتها في التسويق منذ عهد مؤسسها العبقري ستيف جوبز.

جوبز، كان دائمًا ما يدهش الحاضرين بأسلوبه المتفرد ويزودهم بالمعلومات المثيرة، مما جعل الكثير من القادة والمتحدثين يدرسون العروض التقديمية المختلفة التي قدمها والتي لطالما طرح فيها المنتجات الجديدة لشركته بشكل جذب الناس دومًا وجعلهم يحلمون بامتلاك كل ما تنتجه هذه الشركة.

في أغلب عروض ستيف جوبز التقديمية كان هناك لحظة تبهر الحاضرين وتعقد ألسنتهم عن الكلام، فمثلًا في عام ٢٠٠٨ أمسك ستيف جوبز بمظروف عادي من المظاريف البنية المعروفة.

والمعتاد تداولها بكثرة في عالم الأعمال، وقام ستيف جوبز بفتح هذا المظروف بشكل عادي جدًّا، وأخرج منه شيئًا معدنيًّا أبيض اللون، كان هذا الشيء هو كمبيوتر ماك بوك إير، وكان هذا المظروف للدلالة على خفة وزنه وصغر حجمه حتى إن المظروف العادي البني التقليدي كان يتسع لدخول هذا الكمبيوتر فيه، وكان هذا بمجرد ثورة كبيرة في عالم التقنية والتكنولوجيا في ذلك التوقيت، هذه اللحظة أبهرت الحضور وجعلتهم يتحدثون عنها كثيرًا فيما بعد وظلت تلك الطريقة متعلقة بأذهانهم طوال الوقت. وحين أعلن ستيف جوبز عن جهاز الآيفون لأول مرة، وبدأ يعرض الصور العادية عليه، كان يستخدم إصبعًا واحدًا فقط لينتقل من صورة للصورة التي تليها، وكان استخدام إصبع واحد هو الشيء المعتاد وقتها، وبشكل تلقائي مقصود ضغط ستيف على صورة ما بإصبعين من أصابعه، ثم باعد بين الإصبعين فازداد حجم الصورة، ساعتها تعالت أصوات الحاضرين بعد الدهشة التي أصابتهم من جراء استخدام جوبز لتلك الخاصية، فقبل ذلك كانت الشركات الأخرى تخبر المستخدمين أن استعمال إصبعين للتحكم في شاشة تعمل باللمس أمر مستحيل أو مكلف للغاية أو غير ممكن تقنيًّا، وهو الأمر الذي جعلهم لا يفكرون في الحصول على هاتف بهذه الخاصية لسنوات.

في معرض ماك وورلد ٢٠٠٧ أعلن ستيف عن ٣ منتجات ثورية جديدة (مشغل إم بي٣ وهاتف ومتصفح إنترنت) وبعدما ذكر هذه المعلومة أكثر من مرة، عاد فقال إن هؤلاء الثلاثة سيكونون في جهاز واحد اسمه آيفون في معظم عروض منتجات «أبل» كان «ستيف جوبز» يستخدم جملة واحدة فقط تلخص كل ما يتعلق بالمنتج، وتعكس الرسالة الرئيسة التي يرغب في تقديمها، فعندما قدم للجمهور جهاز «آيفون» قال: «إن شركة

أبل اليوم تعمل على إعادة اختراع الهاتف الذكي» وعند تقديمه عرض لـ «ماك بوك إير» في ٢٠٠٨ وصف الجهاز بأنه «اللاب توب الأنحف في العالم».

وهذه هي القيمة التي كان دائمًا ما يروج لها (ستيف جوبز) في كل منتجات أبل.

وليس هناك أعجب من الطريقة التي قدم بها المحاضر العالمي محمد القحطاني محاضرته الشهيرة والتي حصل بها على جائزة بطل العالم في الخطابة لعام ٢٠١٥م، وكان عنوان تلك المحاضرة (قوة الكلمة) وكان هذا المحاضر مبهرًا للغاية ومبدعًا في طريقة عرضه، فقد بدأ محاضرته، وقد هم في إشعال سيجارة فتهامس الجميع مستغربين، فقال لهم في دهشة: هل تعتقدون أن التدخين مُضر بالصحة، عليكم أن تُغيروا هذه المعتقدات، وبدأ يشرح لهم السبب في كون التدخين غير مضر للصحة بعدة أسباب، فقال لهم إن عدد الأشخاص الذين يموتون بمرض السكري سنويًّا يصل عددهم إلى ثلاث أضعاف من يموتون بالتدخين، ومع هذا لو تناولت قطعة حلوى لن يتكلم معي أحد، ثم قال لهم: هل تعلمون أن السبب الرئيس لسرطان الرئة هو الحمض النووي لكل شخص وليس السجائر، فأنت تستطيع أن تتناول السجائر مدى الحياة ولا تُصاب بسرطان الرئة، ويمكن أن يُصاب شخص آخر بسرطان الرئة بالرغم من أنه لا يتناول السجائر إطلاقًا، وأن كل الشائعات التي تُشاع عن السجائر هدفها إيقاف زراعة التبغ، وكاد الجمهور أن يُصدق تلك الكذبات حتى فاجأهم بقوله، إنه اخترع تلك الحجج حتى يُقنع الناس أن التدخين غير مُضر بالصحة، وأن هناك ثلاثة أشخاص من أصدقائه بالفعل صدقوا ما قاله، وهنا بدأ يتكلم عن قوة الكلمة.

قال رجل حكيم لابنه وهو على فراش الموت: هذه الساعة عمرها أكتر من ٥٠٠ سنة، وقبل أن أعطيك إياها اذهب لمحل الساعات بأول هذا الشارع، وقل له أريد بيعها، وانظر إلى سعرها، ذهب ثم عاد لأبيه، وقال: الساعاتي دفع فيها ٥ دولارات لأنها قديمة، فقال له اذهب إلى محل الأنتيكة، ذهب ثم عاد وقال: لقد دفع فيها ١٠ آلاف دولار، قال الأب: اذهب إلى المتحف واعرض الساعة للبيع، ذهب ثم عاد، وقال لأبيه: أحضروا خبيرًا وقيمها، وعرضوا عليّ ٢ مليون دولار مقابل هذه القطعة، قال الأب: أردت أن أعلمك أن المكان الصحيح يقدر قيمتك بشكل صحيح، "من يعرف قيمتك هو من يقدرك، فلا تبق بمكان لا يليق بك".

كان هناك شخص يقف في محطة مترو في واشنطن يعزف على آلة الكمان في تجربة مرصودة بكاميرات المراقبة.

واستمر هذا الرجل في العزف لمدة ٤٥ دقيقة كاملة لمقطوعات موسيقية نادرة، وخلال تلك الفترة مر أمامه أكثر من ألف شخص متوجهين لركوب المترو، لم يتوقف منهم إلا سبعة أشخاص فقط، وبعضهم أعطوه نقودًا وبالنهاية استطاع جمع ٣٢ دولارًا خلال ٤٥ دقيقة فقط!!

وكانت المفاجأة أن هذا الشخص (جوشوا بيل) أحد أعظم وأشهر الموسيقيين في العالم، والكمان الذي يعزف عليه ثمنه ٣.٥ ملايين دولار، وقبل هذا الموقف بأيام قليلة كانت هناك حفلة في بوستن لهذا الرجل ونفذت جميع التذاكر وكان سعر التذكرة الواحدة (١٠٠ دولار)، ولكنه عندما راح يعزف أمام المترو فإنه قد قدم موهبته في مكان غير مناسب، والناس لم يستوعبوا الموهبة التي قدمت لهم بالمجان، ضع نفسك في مكانها الصحيح، ولا تفرط في بضاعتك الثمينة إلا لمن يعرف سعرها ويقدرها.

هل ستتحكم التكنولوجيا في مصير البشر؟!

في عام ١٩٤٩م قام جورج أورويل بتأليف روايته الشهيرة "١٩٨٤" ومنذ ذلك الوقت والناس يقبلون على قراءتها في جميع أنحاء العالم، إذ يجدونها مفيدة "للتعامل مع الأزمنة الصعبة" خاصة في هذا العصر.

حيث تصور الكاتب من خلال روايته أنه "مستقبلًا" في عام ١٩٨٤ سوف تراقبك شاشات التلفاز في كل مكان والجميع سوف يتجسس على الجميع، ولم يكن يدرك وقتها أبسط أبجديات مواقع التواصل التي ستظهر في القرن الحادي والعشرين؛ حيث ترصد تلك المواقع كل رد فعل وتعليق وحركة شراء ومحادثات نباشرها من خلال الإنترنت، لتغذي بها منظومة كبيرة مجهولة تكاد تعلم كل شيءٍ عن حياتنا حتى أكثر مما نعلم نحن عن أنفسنا، وتحاكي تلك البرامج قواعد التسويق باعتبار أن المستخدم هو السلعة التي تباع توجهاتها إلى القائمين على الحملات السياسية والدعائية بمختلف أشكالها.

واليوم نعيش في عالم مدين بالكثير لبصيرة أورويل إذ تُعد روايتة "١٩٨٤" نبراسًا نهتدي به في الأزمنة الصعبة، فالعلم نور يكشف خبايانا جميعًا.

والسؤال الأهم: هل الكمبيوتر الذي صار يتحكم في كل شيء وعنده معلومات عن كل شيء، بل ويحلل تلك البيانات ويقارن بينها سيكون بديلًا عن الإنسان في المستقبل؟! هل البرمجة التي وضعها الإنسان للكمبيوتر ستكون أقوى من عقل الإنسان نفسه في المستقبل وستدير تلك السيرفرات العالم بشفراتها الإلكترونية المعقدة؟!

قد تبدو هذه الأسئلة مثارًا لسخرية البعض، ولكنهم سرعان ما سيأخذونها بمأخذ الجد إذا علموا أن هناك شركة تدعى (نيورالينك) قد ابتكرت شريحة

إلكترونية دقيقة توضع في الدماغ لتطوير الذكاء البشري بصورة تواكب الذكاء الاصطناعي الذي يخطو مئات الخطوات كل يوم، هذه ليست نظريات أو تنبؤات بل تم تجربة هذه الشرائح بالفعل وحققت نتائج مذهلة وكفاءة عالية جدًّا دون أي أضرار تذكر.

وإليك هذا الحوار الافتراضي الذي قد تجريه في المستقبل القريب عندما ترغب في طلب بيتزا من أحد المحلات:

– آلو، دومينوز بيتزا؟

– لا يافندم مع حضرتك جوجل بيتزا..

– جوجل إيه؟ الظاهر إني طلبت رقم غلط.. آسف.

– لا يافندم الرقم مظبوط ..

جوجل اشترت دومينوز بيتزا من كام يوم

– نهاار أبيض.. إنتو ماخليتوش حاجة إلا واشتريتوها؟!

طاب عاوز بيتزا من فضلك..

– ولا يهمك يافندم.. تحت أمرك..

تحب حضرتك نبعتلك طلبك المعتاد؟

– وإنتو تعرفوا منين طلبي المعتاد؟

إنت بتقول شاريينها من كام يوم بس؟!

– حسب رقم موبايلك يافندم آخر ١٥ مرة طلبت بيتزا

فراخ سبايسي سميكة مع أطراف محشية جبنة.

– خلاص طيب ماشي جيبلي زيها..

- طيب إيه رأيك يافندم المرادي تجرب بيتزا الخضار بعجينة رفيعة من غير حشو أطراف؟!

- لأ شكرًا.. أنا مابحبش الخضار..

- بس الكوليسترول عندك عالي جدًّا يافندم!

- إيه ده؟! وإنت إيه عرفك أصلًا؟!

- المستشفى يافندم اللي حضرتك بتعمل فيها فحوصاتك رابطة نظام الفحص عندها مع جوجل.. ونتائج حضرتك خلال السبع السنين الأخيرة ظاهرة أدامي على الشاشة.

- يا دي النيلة! ده إيه الحصار اللي ما يعلم بيه إلا ربنا ده؟!

لا يا سيدي برضه مش هاخد بيتزا خضار..

ومالكش دعوة بالكوليسترول بتاعي..

أنا عندي علاج بستخدمه..

- بس حضرتك يا فندم مش منتظم على العلاج ده..

يعني حضرتك من ٤ شهور اشتريت علبة من صيدلية العزبي فيها ٣٠ قرص، ومن يوميها حضرتك ماشتريتش تاني!

- رحت صيدلية تانية واشتريت منها..

- بس مفيش أي عمليات شراء أدوية على بطاقتك الائتمانية خلال الثلاثة شهور اللي فاتت يافندم!

- دفعت كاش..

– مستحيل يافندم.. لأن حسب بيانات البنك اللي حضرتك بتتعامل معاه آخر عملية سحب نقدي كانت ١٥٠ جنيه من أكتر من ٤ شهور!

– عندي فلوس كاش مخبيها من زمان..

رحت صيدلية مصر واشتريت من عندهم..

– صيدليات مصر يافندم بتحفظ جميع مشتريات الزباين برقم موبايلاتهم.. ورقم حضرتك ماتسجلش على مشتريات الصيدلية من سنة!

– طيب أولع في نفسي علشان تستريح يا عم إنت؟!

خلاص يا سيدي.. مش عاوز بيتزا ولا جوجل.

ولا واتساب ولا فيسبوك ولا تويتر ولا انستجرام..

هطير من الدنيا دي خالص علشان أخلص منكم..

هروح جزيرة مفيهاش لا نت ولا موبايلات ولا تليفونات

ولا حد يتجسس عليّ.. استريحت كده؟!

– اللي تؤمر بيه حضرتك.. بس لو حضرتك حبيت تسافر ماتنساش تجدد جواز سفرك؛ لأنه منتهي من شهرين!

الكاهن.. والبقرة!!

كان الكاهن القديم في قريش يقول لعبدة الأصنام: إن الصنم يطلب منكم بقرة حتى يصنع لكم ما تريدون، وطبعًا الصنم لم يطلب شيئًا ولم يتكلم، والكاهن هو الذي سيستفيد من ذلك كله، ولو أن هذا الكاهن قال للناس: أريد بقرة لي لما أعطاه أحد، ومن هنا تكون الحيلة بإيجاد صنم يعبده الناس ويقدسونه ويقدمون له القربان، بل ينتظرون من الكاهن تلك اللحظة التي يخبرهم فيها بأن الصنم قد تقبل القربان منهم ورضي عنهم.

وقبل الحرب العالمية الثانية وفي خطبة عصماء لهتلر قال فيها: إنه سيصنع للألمان إلهًا عظيمًا يعبدونه في الأرض من دون الله، إنه الوطن الألماني، سيسارعون للتضحية من أجله والموت في سبيله، ومع أن الوطن من الأشياء العظيمة المقدسة التي يفخر الإنسان بالتضحية من أجلة إلَّا أن الساسة غالبًا ما يستغلونه في الأوقات التي يحتاجون فيها للناس فيقدمون أنفسهم وكأنهم حماة للوطن منقذين للشعب.

بل إنك تعجب من أنه عندما كانت العبودية شائعة في أمريكا، قامت "هاريت توبمان" بتكوين مجموعة سرية لإنقاذ العبيد واستطاعت بالفعل تحرير ٧٠٠ شخص بسرية تامة، وعندما سألوها فيما بعد: ما هي أصعب خطوة قد واجهتك؟

قالت: إقناع شخص أنه ليس عبدًا!!

لك أن تتخيل أن نابليون عندما دخل إلى مصر ادعى كذبًا أنه قد اعتنق الإسلام، وأن الهدف الرئيس من مجيئه إلى مصر هو تخليصها من المماليك، وبعدما استقر له السيطرة على زمام الأمور في البلاد جمع العلماء وألقى

فيهم خطابًا دينيًّا استفتحه بالبسملة واستشهد فيه بآيات من القرآن، فقال:

"بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، لا ولد له ولا شريك له في ملكه، أيها المشايخ والأئمة، قولوا لأمّتكم إن الفرنسيين هم أيضًا مسلمون، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في روما الكبرى وخرّبوا فيها كرسي البابا الذي كان دائمًا يحث النصارى على محاربة الإسلام، أدام الله إجلال العسكر الفرنسيين، ولعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية".

وقال أيضا في خطبة أخرى: "نخبركم معاشر المؤمنين أنكم لا تسمعوا كلام الكاذبين، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين، وقد حضر إلى محروسة مصر المحمية أمير الجيوش الفرنسية حضرة محب الملة المحمدية، ونزل بعسكره في العادلية سليمًا من العطب والأسقام، ودخل إلى مصر من باب النصر، وكان يومًا عظيمًا مشهودًا، وخرجت أهل مصر لملاقاته فوجدوه وهو الأمير الأول بذاته وصفاته، وظهر لهم أن الناس يكذبون عليه شرح الله صدره للإسلام، ومرادهم بهذه الإشاعة هلاك الرعية وتدمير الملة الإسلامية".

إنها الأصنام التي يقدمها المستفيدون في كل مكان وزمان، يجعلونك تظن أنك ضعيف؛ لتستقوى بهم، فيفعلون بك أكثر ممّا قد يفعله الأعداء الوهميون الذين صنعوهم في مخيلتك، تلك القصة المكررة لذلك الفتوة الذي يقتات على أهل (الحارة الشعبية) المذعورين من العدو الوهمي الذي سيغير عليهم ليلًا فيقتل أبناءهم ويعتدي على نسائهم؛ فيهرعون إلى ذلك الفتوة الذي سيحميهم، يجعلونك تظن أنك جاهل؛ ليمارسوا ذكاءهم المغشوش وعلمهم المنقوص وحيلتهم الكاذبة، يجعلونك تظن أنك لست متدينًا بل ترتكب المعاصي والموبقات؛ ليغرقونك في نظرياتهم الموجهة وفكرهم

الاستقطابي، أتذكر عندما تعاطفت مع تلك الفنانة التي هربت في وقت متأخر من الليل بينما أباها يغرق في النوم في تصادم عنيف مع الدين والمجتمع، هل أنت تكرة الدين؟ كلا، بل ذلك الكاتب المخضرم والمخرج المحنك هم من جعلوك تشعر بهذا، والحياة مليئة بهؤلاء فهم ليسوا بشاشات السينما فقط!!

وهو ما جعل الكاتب جبران خليل جبران يبدع في وصف تلك الحالة قائلًا: "إن الحقيقة والكذب التقيا يومًا، فقال الكذب للحقيقة: إنه ليوم جميل حقًّا، نظرت الحقيقة حولها في ريبة، رفعت عينيها إلى السماء لترى أن الأجواء بالفعل كانت جميلة، فقضت وقتًا طويلًا بصحبة الكذب في ذلك اليوم، ثم قال الكذب للحقيقة: الماء في البئر رائع، فلنستحم معًا، نظرت الحقيقة للكذب في ريبة للمرة الثانية، ولمست الماء لتجده بالفعل رائعًا، فخلع الاثنان ثوبيهما ونزلا للاستحمام في البئر، وفجأة خرج الكذب من البئر (وارتدى ثوب الحقيقة وركض بعيدًا)، خرجت الحقيقة الغاضبة من البئر وركضت وراءه في كل الأماكن بحثًا عن ثوبها، فنظر البشر إلى عري الحقيقة، وأشاحوا بوجوههم في غضب واستهجان، أما (الحقيقة المسكينة) فعادت إلى البئر واختفت للأبد من فرط خجلها، ومنذ ذلك الوقت يسافر الكذب حول العالم مرتديًا ثوب الحقيقة، بينما يرفض الناس أن يروا الحقيقة عارية!".

ذكاء المسافات يصنع الفارق!!

إذا تأملنا حياة القنفذ سنرى الكثير من العجائب، فلا يمكن لتلك القنافذ أن تقترب من بعضها لأن الأشواك التي تحيط بها تكون حصنًا منيعًا لها تحميها من أعدائها بل حتى من أبناء جلدتها، فإذا جاء فصل الشتاء ببرودته القارسة اضطرت تلك القنافذ للاقتراب والالتصاق ببعضها متحملة ألم الأشواك والوخزات طلبًا للدفء والراحة، فإذا ما شعرت قليلًا بالدفء ابتعدت عن بعضها حتى تشعر بالبرد ثانية فتقترب، وهكذا تقضي لياليها بين اقتراب وابتعاد مستمر، فالاقتراب الدائم قد يؤذيها ويصيبها بالجروح، والابتعاد الدائم قد يُفقدها حياتها، ولعل العلاقات البشرية أقرب ما تكون من هذا الوصف، فلا يخلو شخص من أشواك التعامل المُرّ مع بعض الناس، لكنه في نفس الوقت لن يحصل على الراحة والدفء الاجتماعي وهو منعزل في بوتقته وصومعته البعيدة عن الناس، ولأنه لا محالة من مخالطة الناس والحاجة إليهم بشكل أو بآخر، فإننا جميعًا نتحمل تلك الوخزات والأشواك حتى تستمر الحياة، ومن الأفضل أن تكتفي بالخير الذي يظهرونه أمامك دائمًا متجاهلًا ما تسمعه عما يقولونه من وراء ظهرك، ولا تحرص على اكتشاف الآخرين أكثر من اللازم وتدقق في نياتهم، فلو اطلع الناس على ما في قلوب بعضهم البعض لما تصافحوا إلا بالسيوف.

وكما ورد أن الإنجليز عندما أرادوا منح إحدى الدول العربية استقلالها وبدءوا في مرحلة سحب القوات، خطرت فكرة لدى أحد الخبراء لديهم من الإداريين بسرايا المندوب السامي الذي كان جالسا على كرسيه خارج مكتبه فنهض وسحب البرنيطة (الكاب) من رأسه ووضعها فوق أعلى نافذة بالقصر ثم عاد وجلس مرة أخرى على الكرسي ونادى مجموعة من الموظفين

والعمال العرب الموجودين داخل سرايا المندوب السامي، وقال لهم: "هناك جائزة قيمة فوق هذه البرنيطة في أعلى النافذة، والجائزة لمن يستطيع الوصول إليها". تدافع الموظفين والعمال وكل واحد منهم يطمع في الفوز بالجائزة، وكان التنافس بينهم شديدًا، وظل هذا الرجل الإنجليزي يراقبهم من بعيد، فلاحظ أنه كلما اقترب واحد منهم من البرنيطة أمسك الباقون بقدميه وسحبوها للأسفل ومنعوه من الوصول للهدف.

وتكرر هذا المشهد وظل الرجل يراقب لأكثر من ساعة، بعدها أنهى المسابقة فجأة ثم صعد وتناول البرنيطة بعصاته الطويلة ثم التفت إليهم قائلًا: "انظروا فليس هناك جائزة، وإنما هو اختبار لكم وللأسف أنتم قد فشلتم فيه، نحن سنذهب لا محالة ولكنكم لن تنجحوا في إدارة بلادكم والدليل فشلكم في هذا الاختبار البسيط، أتعرفون لماذا؟!

لأنكم تتعاونون على التعطيل ولا تتعاونون على تحقيق النجاح، لو كان هذا الاختبار لنا نحن الإنجليز كنا جلسنا أولًا، واتفقنا على اختيار واحد منّا يصعد ويصل إلى الهدف، ثم نتعاون جميعًا في مساعدته حتى يصل البرنيطة (الكاب)، ويستلم الجائزة وينزل ليوزعها بيننا بالتساوي".

في هذا العصر تحديدًا ينبغي أن تعلم وتتعلم جيدًا ما الذي ينبغي أن تقوله ومتى تقوله وكيف ستقوله ولماذا، ينبغي أن تجيد فن المسافات التي قد تجعل منك شخصًا ملهمًا مؤثرًا في الآخرين أو شخصًا مضيعًا لوقتك، المسافات التي تجعل منك شخصًا خفيفًا لا يعنف ولا يلوم من أخطئوا أو بعدوا أو شقت عليهم الحياة بأعبائها، المسافات التي تجعل منك شخصًا راقيًا يترك ما لا يعنيه ويحفظ للناس حقوقهم وغيبتهم ويتورع عن الشبهات، المسافات التي تخلق لنا عظماء يتعاملون بذوق وإنسانية وتَحَسُّس لمشاعر الناس،

فالاقتراب الزائد احتراق، لذا ضعِ المسافات والفواصل دائمًا واحذر ضياع العمر في شغف الاقتراب المميت، وإذا كنت تبحث عن حلم كبير، فلا ينبغي لك أن تعتقد أن هذا الحلم بعيد أو صعب المنال، فقد يكون تحت قدميك وأنت لا تبصره، أذكر أن جواسيس بريطانيين كانوا يجمعون معلومات من الأراضي الفرنسية المحتلة ويكتبونها في صورة خطابات سرية صغيرة، ثم يطوونها في أزرار الجاكيت حتى يتجنبوا تفتيش القوات النازية، وذات يوم تم العثور على أحد هؤلاء الجواسيس عندما قام أحد الضباط الألمان بتحريك زرار القميص ناحية اليمين وقام بفتحه فوجد تحتة الخطاب السري، فتم القبض على الجاسوس، وعلموا بذلك خدعة بريطانيا الخفية لتهريب المعلومات.

بعدها اجتمع خبراء بريطانيا للبحث عن طريقة عبقرية جديدة، خاصة وأنهم كانوا يتعرضون لتفتيش شديد حتى في ملابسهم الداخلية، فقام أحد الجنود الألمان، وقال لهم: "إن الجنود الألمان سيمسكون أي زرار جاكيت، ويقومون بتفقده بكل قوة ناحية اليمين حتى يتأكدوا أنه ليس مخبأ سريًّا لتلك الخطابات، لذا ليس أمامنا سوى أن نصنع جواكيت أخرى أزرارها تفتح ناحية الشمال، فعندما تقوم قوات التفتيش الألمانية بلف الزرار ناحية اليمين فهم بذلك يقومون بإغلاقه أكثر، وساعتها سيتأكد أنه ليس جاسوسًا وسيمر بكل سهولة، ورغم ما لاقاه هذا الحل من سخرية شديدة، إلا أن البعض كانوا يرون أنه حلًّا عبقريًّا بسيطًّا لا يحتاج إلى مجهودٍ كبيرٍ ولا يفكر فيه أي أحد، وبالنهاية لم يكن أمامهم إلا المجازفة بهذا الحل كآخر طريقة ممكنة، وبالفعل نجحت الخطة كما يراد لها، فلو تعقدت الحلول والخطط العبقرية، فحاول دائمًا أن تجرب أسهل الحلول وأكثرها تفاهة فقد تكون هي الحل الأمثل.

وبنظرة أكثر تعمقًا عن ذكاء المسافات في التعاملات الاجتماعية، فإن أكبر مسبب للحوادث المرورية بحسب الدراسات والإحصائيات بعد السرعة والانشغال هو عدم ترك مسافة كافية بيننا وبين السيارة التي أمامنا! فالاقتراب الشديد يفقد السائق القدرة على السيطرة، ولا يعطيه فرصة للتصرف في أي موقف طارئ! والاقتراب الشديد من المشكلة يشل الحركة ويضعف التفكير!!

وحتى في عالم الطبيعة، فإن الاقتراب الشديد يؤذي، ويحول بيننا وبين تلمس الجمال في تلك الأشياء! فرؤيتك للبحر عن بعد أجمل بكثير من غوصك فيه، ولو سافرت للقمر الذي تغنّى به الشعراء، وهام به الكُتَّاب فلن ترى إلا حجارة ومساحات خالية!

ولو اقتربت الشمس قليلًا لاحترقنا، والمصباح يحرق الفراشة إذا لامست توهجه، ولو استمر البحر في حالة مد دائمة لغرقنا!!

لا تقترب بشكل دائم من البشر، فذاك أدعى لحفظ الود وزرع المهابة.

لا تضرب حصارًا عاطفيًّا حول من تحب حتى لا تخسره، لا تلغي المسافة باسم الحب!

إذا تأملت في طبيعة عمل زووم الكاميرا، ستجد أن الاقتراب الشديد لا يظهر جمال الصورة، وربما لا يبين ملامحها وفوق هذا يوضح نقاط الضعف ومواطن القبح، كما أن الابتعاد الشديد أيضا يضيع الملامح تمامًا، ويلغي مواطن الجمال فيها!

وفي المقابل، احترم حدود الآخرين ومسافاتهم؛ لا تقترب أكثر مما ينبغي، ولا تجعل من نفسِك استثناء دون غيرك من البشر بدافع الحب والصداقة وقوة الصلة!

تقول أحلام مستغانمي: «الحبُّ هو ذكاءُ المسافة، ألّا تقتربَ كثيرًا فتُلغي اللهفةَ، ولا تبتعِدَ طويلًا فتُنسى. ألّا تضعَ حطبَكَ دفعةً واحدةً في موقِد مَن تُحبُّ؛ أنْ تُبقية مشتعلًا بتحريكِكَ الحطبَ، ليس أكثر، دون أنْ يلمَحَ الآخرُ يدَكَ المحرّكة لمشاعِره ومسار قدره. لا حبَّ يتغذّى مِن الحرمان وحدَه، بل بتناوُب الوصْل والبِعاد، كما في التنفُّس. إنها حركةُ شهيقٍ وزفير، يحتاج إليهما الحبُّ لتفرغ وتمتلئ مجددًا رئتاه، كلَوْحٍ رُخاميٍّ يحملُهُ عمودان إنْ قربْتَهُما كثيرًا اختلَّ التوازن، وإنْ باعدْتَهما كثيرًا هوى اللوحُ. إنه فنُّ المسافة!».

وأذكى البشرِ هو مَن يُتقِن فنَّ إدارة المسافات يعرف مَن يَقترِبُ، ويعرف مَن يبتعدُ، وقد أكَّد هذا المفهومَ عالِمُ الاتصال الإنسانيِّ (إدوارد هول) بقوله: «إنَّ إدراك المسافة والمحافظة عليها مسألة مُهمة لإبقاء الودِّ والاحترام المتبادل في العلاقاتِ ما بين الأشخاص. ونفقِد علاقتَنا بالآخرينَ عندما نخطئ في احتساب تلك المسافة».

لا تقعْ في خطأ اقتحام المسافاتِ وتجاوُز الحدود؛ حتى تنعمَ بحياة سعيدة ملؤها حبٌّ وطيب تواصُل واحترام وتقدير ممَّن حولكَ، ولْتعمَل على وضْع المسافاتِ والحواجز والأسوار؛ فقليلٌ من المسافاتِ والحواجز ستجعلُكَ تشعُر بقيمتِكَ وكيانِكَ، وستسعَدُ معها بالحياة، وستحسُّ بإنسانيتِكَ وكيانِكَ.

إنَّ مِن أكثر أسباب فشل العلاقاتِ إلغاء المسافاتِ؛ اعتقادًا مِنّا أنَّ هذا أفضلُ لتطوير العلاقة وتحسينها، إلَّا أنَّ العكسَ هو الصحيحُ، فالمساحة الشخصية التي تحيط بالفرد يعتبرُها مِلكًا له، وغالبًا ما يصيبُ البعضَ حالةٌ من الذُّعر حينما يتخطى آخرونَ تلك المساحةَ.

البشرُ رائعون جميلون ما لم نقتربْ منهم! والإشكاليةُ ليسَت فيهم، بل بكوننا

اقترَبْنا أكثرَ، وكوننا لم نفهَم أنَّ البشر طُبِعوا على النقص وعدم الكمال، ونحن مَن يتحمَّل وزر المشاعر السلبية التي تكونَت بعد الاقتراب الشديد منهم، وسمحْنا لأنفسِنا بالوصول لما لا يجبُ الوصول إليه، وكشْف ما كان يجبُ أنْ يُستَر، إنَّ التفتيش في الصناديق المغلقة ربما يوصلنا لاكتشاف ما لا يسرُّنا رؤيتُه، وفتْحَ الستائر ربما جعلَك تُبصِر لوحاتٍ ما كنتَ مُضطرًّا إلى كشْف قبحِها! لا تغُص كثيرًا في محيطاتِ مَن حولَكَ؛ فأغلبُ الظَّنِّ أنكَ لن تُخرِجَ جواهرَ ودُرَرًا، بل عيوبًا ونواقصَ.

وإدارة المسافاتِ حكمة ونعمة عظيمة لمن تمكَّن منها، والجهلُ بها غفلةٌ، ومَن حُرِمَها فقد خسِرَ الكثيرَ! لا تبتعِدْ عن الدُّنيا بالترهُّب؛ فلا رهبانيةَ في الإسلام، ولا تقتربْ منها بالشَّهواتِ فإنها منافيخُ النَّار.

لا تقتربْ كثيرًا فتملَّكَ الناسُ، ولا تبتعِد كثيرًا فينْسَوْكَ أو يجهلوكَ. لا تقتربْ من ذاتِكَ أكثر فتُصابُ بالغرور، ولا تبتعِد عنها كثيرًا فتشعُرَ بالضآلة والدونية.

لكي يبقى الجميلُ جميلًا لا تقترِبْ منة كثيرًا! البعضُ أجملُ من بعيد، فحافِظْ على المسافة بينَكَ وبينهم.

القهوة حلوة!!

ملايين البشر حول العالم يدمنون القهوة، بل ويعتبرونها جزءًا أصيلًا من طقوسهم المعتادة وحياتهم اليومية خاصة في الصباح وصارت رمزًا للعمق والتأمل، وذهب كثير من الشعراء إلى التغني بها فقال عنها الشاعر العربي (أبو نواس):

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء
وداوني بالتي كانت هي الداء
صفراء تضحك فيها الشمس تحسبها
تبرا يذاب ومسكا عقة الماء
أباحها الشرع لا سكر وعربدة
فمالها ولماء العين أكفاء
ترغي وتزبد فوق النار في غضب
كأنها ولهيب النار أعداء
في أهيف من أباريق منعمة
كأنها في إختناق الخصر عذراء
كأنما الحسن منسوب لطلعتها
والمسك من دمها والثغر لألاء
فلو رأها أبو النواس اذ سكبت
لما دعتة إلى الحانات أهواء
فلم تزل تصقل الأذهان من وسن
والخمر إن شربت سكر وإغفاء

وترجع قصة اكتشاف القهوة لراعي غنم عربي يدعى خالدي، كان يرعى الماعز في منطقة كافا بجنوب إثيوبيا، ولاحظ أن الماعز ينتابهم حالة من الحيوية والنشاط عندما يتناولون حبات ثمار من نبات معين، فأصابه الفضول ودفعه لأخذ حبات هذه الثمرة وغليها في الماء وشربها، وبهذا يكون هو أول من صنع فنجانًا من القهوة وتناوله وتذوقه، وبمرور الوقت انتشر شرب القهوة في جميع أنحاء العالم وتنوعت وتفنن صُنّاعها في اختراع العديد من الطرق لتقديمها.

ولكن هناك فرق كبير بين من يتناول القهوة في مكتبه الخاص، وبين من يتناولها في مقهى شعبي، حتى المذاق نفسه يختلف

فلو مرت إحدى السيدات على مقهى شعبي فإنها ستتعجب كثيرًا من هذا المكان الذي يرتاده جميع الناس كل مساء، مكان غير مرتب، أغاني رديئة، طلبات بسيطة صنعت على عجل، فوط غير نظيفة ينظفون بها الطاولات والكراسي ليجلس عليها صفوة المجتمع، والأعجب أن هؤلاء الذين يأتون كل ليلة يجلسون لساعات طويلة على طاولة الدومونو لا ينطقون بكلمة واحدة وربما تحتاج إلى أن تهزهم لتتأكد أنهم ما زالوا على قيد الحياة، الزهر في يد والشيشة في اليد الأخرى، وهؤلاء الشباب يقضون الساعات الطويلة على لعبة (بلاي ستيشن) لا ينطقون إلا تفاعلًا مع اللعبة، وهذا الذي يجلس بعيدًا منهمكًا في سماع الأغاني من خلال (هيدفون) يعزله عن العالم بأسره، بعض (الصنايعية) الذين ذهبوا لقضاء بعض الوقت يلتقطون الأنفاس ويأكلون ويشربون دون أن يتكلموا مع بعضهم، موظفون ومحامون وغيرهم قد اصطحبوا بعض الأوراق إلى هناك، لا تسمع في هذا المكان إلا بعضًا من ضحكات الشباب الذين لم تفرقهم الغربة والزواج والعمل.

وربما لا تجدهم، هب أن هذا المكان للسيدات، فإنك ستحتاج إلى جدار عازل للصوت من فرط ضحكاتهن وصوتهن المرتفع، والأغرب أن هؤلاء الصامتين الغامضين يخرجون من القهوة وهم في قمة راحتهم النفسية.

فهم لم يصمتوا لأنهم لم يجدوا مواضيع للحديث فيها، بل صمتوا؛ لكي يعطوا الفرصة لتلك (الكركبة) التي سكنت عقولهم من ضجيج الحياة أن تخرج، فالمجتمع الشرقي الذي نعيش فيه يكون الرجل هو الأكثر احتكاكا من خلال عمله ومعاملاته.

ويحتاج إلى وقت يمارس فيه (اللا شيء!!)، يشعر بالتفاهة وأنه غير مطالب بأية أعباء تجاه من يجلس معه ويبطئ من (ريتم) الحياة السريع، لا يبحث عن التدقيق في التفاصيل ويذهب لمن يشبهونه كل ليلة، فيبدون كتماثيل من الشمع لا يتحركون ولا ينطقون ولا يتأثرون، لذا كان لا بدّ لهذا المكان أن يكون موجودًا فلولاه لشعر الناس بالانفجار والضغوط التي لا تطاق!

ساقتني الأقدار أنا وزميلي للجلوس على قهوة بالمنوفية، وتعجبنا من الصمت المطبق عليها، لا أحد يتكلم وجميعهم شاردون الذهن لا يلتفتون لأي شيء، أنا وصديقي فقط من نتكلم، مر علينا (القهوجي) فلم يتكلم ولم يسألنا عن المشروب الذي سنتناوله، كلما مر علينا أحد ولاحظ أننا فقط من نتكلم تعجبوا لذلك، يبدو أننا في المكان الخطأ، لقد طال بنا الوقت ولم نشرب شيئًا، ولم يسألنا أحد عن شيء، فقط نظرات الدهشة من الجميع لنا، فما كان منا إلا أن نسأل أحد المارة: هل هذه قهوة تقدم طلبات أم ماذا؟! فأجاب: نعم إنها قهوة الخرس، لا يجلس عليها إلا الخرس ولا يعمل بها إلا الخرس!!

هل نحن حقًّا متناقضون؟!

لعل من أغرب ما في هذه الحياة التناقضات، تذهب لطبيب الحمية فتجدة بدينًا، تطرق أبواب من يقومون بذراعة الشعر فتجد من يقوم بذلك أصلع، ديل كارنيجي الكاتب العظيم الذي ألف كتاب "دع القلق وابدأ حياتك" مات منتحرًا، جان جاك روسو الذي ألف كتبًا رائعة في تربية الأطفال أودع أبناءه في دار للأيتام، مارادونا وبلاتيني رفعوا شعارات مبهرة في افتتاح مونديال ١٩٨٦، فمارادونا الذي رفع شعار (لا للمخدرات) على قميص الأرجنتين المعروف صار من أكبر مدمني المخدرات الذين عرفهم التاريخ، وبلاتيني الذي رفع شعار (لا للفساد) أصبح رجلًا فاسدًا، أحلام مستغانمي التي هاجمت الرجل بشدة وحذرت النساء منه تزوجت أربع مرات، وقديمًا قالوا: (باب النجار مخلع)، وقال جاري المرحوم الحاج/ تاج البدوي قديمًا في وصفه الظريف الساخر: (الشراقوة في الغرب «إشارة إلى منطقة كانت تقع في غرب البلد»، والغرباوي ناحية الشرق «إشارة إلى منطقة الغرباوي التي كانت بشرق البلد»، والعريان بيبيع هدوم «إشارة إلى محل لبيع الملابس» وأبو راس بيبيع جزم «ومن المفترض أنه يبيع طواقي» وأبو ربع بيبيع لحمة «المفروض أبو كيلة»، ونجفة سودة ومحبرة بحبر وفرحانة دايمًا زعلانة «إشارة إلى أسماء بنات يعرفهم تتناقض أسماؤهم مع طبيعتهم»". وعن قرية مجاورة قال: "تنزل فيها تلاقي الظابط سواق واللواء بنا والملك عربجي". وهذا في إشارة إلى تناقض أسماء العائلات مع وصف المهن!

التناقضات التي نعيشها تعتبر أحد المواضيع التي تهم تقريبًا كل إنسان؛ لأن التناقض طبيعة إنسانية مهما حاول البعض إخفاءه أو التجمل مما يظنه خللًا

أو نقصًا من السهل أن ترى التناقض في غيرك واضحًا جليًّا، في حين يصعب على كثيرين أن يروا هذا التناقض في أنفسهم، فالبشر جميعهم يعيشون هذا التناقض بوعي أو دون وعي!!

التناقض يعيش داخل كل إنسان منا بدرجات متفاوتة، وهذا التناقض إذا زاد عن حده الطبيعي قد يسبب زعزعة للاستقرار النفسي للإنسان، لذلك يحرص الإنسان الطبيعي العاقل على الوصول إلى التوازن والتصالح الداخلي وتوحيد رؤيته ومواقفه بقدر استطاعته، ومن أجل هذا يبحث الإنسان عن معادلة تضمن وتحقق له التوازن أو التوافق بين ثوابته وسلوكه، لكي يعيش بسلام داخلي دون أن ينظر لنفسه أو ينظر له الآخرون بنظرة تقلل من شأنه!

ولعل من أعمق ما قرأت في هذا الموضوع مقال مترجم في صحيفة حكمة (صحيفة إلكترونية) للدكتور ديفيد بيرلاينر أستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة (ليبر دي بروكسل)، وأحد أكبر المهتمين بالذاكرة الاجتماعية والتحول الثقافي في مدينة بروكسل.

وقد ضرب ديفيد عدة أمثلة لذلك تدل على أنه حتى المفكرين النقديين يقعون في هذا التناقض، وقالت المؤرخة الأمريكية جوان والاتش أن ما يميز المفكر الحاسم هو «قدرته على الإشارة إلى تلك التناقضات». واستشهد ديفيد على ذلك بتناقض الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو الذي يتحدث عن «شجاعة الحقيقة» بينما هو يخفي مرضه القاتل، أو التاجر الذي يهتم بالفقر، أو ناشط بيئي يدخن أو يشتري أجهزة إلكترونية تتناقض مع حرصه على البيئة، أو من يحرص على الخصوصية ويقوم بنشر صورة على فيسبوك أو الانستجرام!

التناقضات تتنوع وتتعدد وتتفاوت من شخص لآخر، وهي ليست بالضرورة سلبية في كل أحوالها، بل هي عامل مساعد على الإبداع عندما يتم توظيفها بشكل إيجابي.

فالكذب على سبيل المثال سلوك معيب، غير أن القيام به في بعض الأحيان يجعل الإنسان أكثر تقبلًا لهذا السلوك إذا كان بصدد إصلاح ذات البين أو لجمع شتات الأسر المتناحرة أو لتجنب ضرر أكبر وأشد من الكذب في حد ذاته.

فالشعور بالذنب أو الرغبة في الوصول للكمال كلاهما لن يحقق الكمال ولن يأتي بالاطمئنان النفسي؛ ولأن التناقض صفة ملازمة للبشر، يلزم التعايش معها بتوازن وجعلها مصدر إلهام وإبداع.

أجراس الكرامة

زار الإمبراطور الألماني غليوم الثاني دمشق في عـــــام ١٨٩٨ فخرجت المدينة كلها واستقبلته استقبالًا حافلًا، وخلال هذا الاستقبال لاحظت الإمبراطورة زوجة غليوم حمارًا جميلًا أثار انتباهها كثيرًا، فطلبت من والي دمشق حينها مصطفى عاصم باشا أن يأتيها به؛ لكي تأخذه معها ذكرى إلى برلين، راح الوالي يبحث عن صاحب الحمار، وكان يدعى (أبو الخير تللو) فطلب إليه إهداء الحمار إلى زوجة الإمبراطور فاعتذر بشدة، غضب الوالي وعرض على أبو الخير شراء الحمار بأي مقابل ولكنه أصرَّ على الرفض قائلًا: (يا أفندينا، أنا لدي ستة رءوس من الخيل الجياد، إن شئت قدمتها كلها إلى الإمبراطورة هدية دون مقابل، أما الحمار فلا!!)، استغرب الوالي وقال له: (أتهدي الخيل وتترك الحمار؟!)

رد تللو: (سيدي إذا أخذوا مني الحمار إلى بلادهم ستكتب جرائد الدنيا عنه وسيســـأل الناس منين هالحمار؟ فيردون عليه: "من الشام". ويصبح "الحمار الشامي" حديث كل الناس، وربما معرضا للسخرية).

وسيقول الناس هل يُعقل أن إمبراطورة ألمانيا لم تجد في دمشق ما يعجبها غير الحمير؟ لذلك لن أقدمه لها ولن أبيعه.

نقل الوالي الخبر لـــــــــلإمبراطور والإمبراطورة فضحكا كثيرًا، وأعجبا بالجواب، وأصدر الإمبراطور أمره بمنح تللو وسامًا رمزيًا.

إنها أجراس الكرامة الفطرية التي تولد في النفوس الكبيرة، لا تقدر تلك الكرامة بأموال ولا بذهب لأنها أعظم ما يملك الإنسان في حياته، فمن فقد الكرامة كمن فقد حياته سواء بسواء.

يروي أنه من أيام الاحتلال البريطاني للهند، كان هناك ضابط بريطانيّ صفع هنديًّا فقيرًا على وجهه، فما كان من الهندي إلا أن رد الصفعة للبريطاني بواحدة أشد منها أسقطته، ومن هول المفاجأة فزع الضابط المرتبك إلى رؤسائه للاسترشاد وطلب الانتقام لشرف الإمبراطورية المهدور، لكن ما زاده دهشة كان طلب رئيسه منه أن يأخذ من الخزينة خمسين ألف روبية، (وكانت هذه بمثابة ثروة في ذلك الوقت) ويذهب إلى المواطن الهندي ليعتذر منه عن الصفعة ويعطيه المال. ولم يفهم الضابط ما يحدث إطلاقا!

استلم الهندي النقود وقبل الاعتذار وتحسنت أحواله وأصبح تاجرًا كبيرًا ونسي الصفعة، لكن الإنجليز لم ينسوا صفعته للإمبراطورية، وبعد فترة استدعى الضابط الكبير مرءوسه وذكره بالهندي إياه، وطلب منه أن يذهب ويصفع الهندي –الغني الآن – مجددًا أمام حشد من الناس، ولم يفهم الضابط الصغير كيف يمكنه أن يصفع الهندي النافذ ويفلت بفعلته، وهو الذي لم يفلت بها أيام أن كان الرجل فقيرًا ضعيفًا، لكنه أطاع الأمر العسكري مجبرًا، ذهب الضابط إلى الهندي الغني بين حرسه وخدمه وزواره، وصفعه بقوة أسقطته أرضًا، ولكنه لم تصدر عن المضروب هذه المرة أي ردة فعل، بل ولم يرفع رأسه أمام الضابط الذي عاد إلى رئيسه مندهشًا، وشرح الرئيس له كيف أن الهندي عندما كان فقيرًا لم يكن لديه ما يخاف عليه غير كرامته فثار لها، والآن أصبحت لديه أشياء عزيزة أخرى يخاف عليها ويتغاضى عن كرامته من أجلها!

لا أعرف المصدر الأصلي للقصة وما إذا كانت حقيقية أم لا، لكنها تصلح لوصف خبرة إنسانية تستحق النظر على أي مستوى، والتي يدركها ويستخدمها الأقوياء والماكرون –أو يعانون منها– إذا أساءوا ضبط المعادلة.

في ثورات "الربيع العربي"، قالوا إن الناس قد وصلوا إلى حد لم يعد لديهم معه ما يخشون خسارته، ولم يعودوا يحتملون صفعات أخرى جديدة تستهدف ما تبقة من كرامتهم، لذا فإنهم قد نزلوا إلى الشوارع ليواجهوا احتمالات الموت والاعتقال، نفس الأمر بالنسبة للشعب الفلسطيني، فقد انتفض الشباب يهاجمون جنود الاحتلال ومستوطنيه بالأيدي العارية أو السكاكين الصغيرة في عمليات يائسة محسومة النتيجة سلفًا، وذلك لأنهم ببساطة لم يعد لديهم ما يخسرونه!

وفي هذه الأحداث وشبيهاتها، يدفع اليأس وفقدان كل شيء إلى الثورة التي يخشاها كل مستعمر أو مستبد ومتغطرس في المقابل، سيكون صاحب الامتيازات الذي يكسب –حتى من وضع غير سويّ– حريصًا على ديمومة الوضع المريح. وسوف تتغير عنده تعريفات المبادئ والمصالح، والضار والنافع، وامتيازات النخب دائمًا مقتل الثورات وعدوه تطلعات الكثرة، سواء إلى حياة أكثر كرامة، أو تحرر من استبداد أو احتلال، وكان ذلك واضحًا في "الربيع العربي"، حين لعبت النخب الانتهازية لعبة انتظار الكاسب ثم ركبت ظهور المحتجين للحفاظ على الامتيازات والتمسك بالسلطة!

وفي فلسطين أيضًا، اختبر السادة الانتقال من أسرة المعسكرات الخشنة والعربات العسكرية إلى غرف النوم الفخمة والفلل المترفة والسيارات الفارهة، وعلى الرغم من شدة الصفعات والإهانات المتلاحقة من كل صوب؛ فإنهم قد ترددوا عن الرد وكفوا أيدي غيرهم عنه أيضًا، بالصفعات– ببساطة لأنهم أعطوهم ما يخشون فقدانه، ويريدونه بأي ثمن!

ليست قاعدة مطلقة أن المال والجاه يجيدان الكرامة، فكم من غني غادر جنته وهزم نرجسيته واختار الوقوف مع الآخرين المحرومين، لكن هؤلاء قليلون، بل وربما يوصفون بالجنون. والقاعدة هي أن الإنسان ينتبه أكثر إلى كرامته عندما يجوع ويضطهد، لأن الجوع ذل وابتذال للكرامة في حد ذاته، يفاقمه الاضطهاد النفسيّ والحسيّ!

وقود المبدعين

دائمًا هناك فئة مميزة بعض الشيء، تلمس في أدائهم روح الإبداع والاختلاف، ولا يمكن تصور الحياة بدونهم فغالبا هم من يقومون بمهام لا يمكن الاستغناء عنها ويصعب استبدالهم إذا لزم الأمر، لكن بالرغم من أن هذه الفئة تعطي جمالًا وروحًا لكل شيء يصنعونه؛ فإن أغلبهم يكونون من غريبي الأطوار، فعلى سبيل المثال لا يمكن أن ترى مبدعًا يستمر في إبداعه دون تشجيع ودعم مستمر ممن حوله، كما أن هؤلاء من الصعب أن ينطووا تحت أيدولوجيات قد تقيد أداءهم أيًّا كان اتفاقهم أو اختلافهم معها، فالمبدع لا يملك إلا حلمه وتخيله ورؤيته وأداءه المختلف، ويرى أن أي انتزاع لأي من هذه المفردات هو انتزاع له هو شخصيًّا فهذه الأدوات هي أغلى ما يملك، هذه الفئة حساسة جدًّا، فمن الممكن أن تقتله كلمة سخرية منه أو من إبداعه، وقد تحييه كلمة دعم بسيطة لا تُلْقِي لها بالًا، المبدع في الغالب لا يسمع إلا صوت نفسه ولا يقتنع بأي كلام بل يجب أن تقنعه بنفس الطريقة التي يفكر بها، ساعتها ستكون قد امتلكت لُبّ قلبه وعقله!!

وأول رسائل الدعم التي ينبغي أن يتلقاها المبدع لا بد أن تأتي من الأسرة، رغم أن هناك حالات نادرة خلقت الإبداع في كل شيء مع غياب الأسرة مثل ستيف جوبز مؤسس شركة أبل الذي ألقاه أبواه في قسوة يوم ولادته والذي قال عن المبدعين: (طوبى للمجانين، غريبي الأطوار، المتمردين، مثيري المتاعب، المختلفين.. من يرون الأشياء بشكل مختلف.. ليسوا مغرمين بالقواعد ولا يحترمون الوضع القائم.. يمكنك أن تستشهد بهم، تختلف معهم، تبجلهم، تذمهم.. لكن الشيء الوحيد الذي لا يمكنك فعله هو أن تتجاهلهم.. لأنهم يغيرون الأشياء.. يدفعون الجنس البشري إلى الأمام..

بينما قد يراهم البعض مجانين.. نراهم نحن عباقرة.. لأن المجانين للدرجة التي تجعلهم يعتقدون أن بإمكانهم تغيير العالم هم من يغيرونه بالفعل).

كتب د/ أحمد خالد توفيق في أحد مقالاته عن غرابة أطوار المبدعين:

(أشهر قصة تُحكى عن شرود الذهن هي قصة إديسون العالم الأمريكي العبقري الذي لم يحضر حفل زفافه. السبب هو أنه انشغل في المختبر بتجربة مهمة، وقد بحثوا عنه كثيرًا فاتضح أنه كتب موعد الزفاف في مفكرته لكنه نسي!

لا أعرف ما قاله لعروسه في تلك الليلة السوداء لكن التاريخ لا يذكر أن فسخ الخطبة قد تم على كل حال.

وهناك نيوتن عالم الرياضيات الذي كان جالسًا قرب المدفأة لكنه لا يشعر بالدفء. فطلب من خادمه أن ينزع المدفأة من الجدار ويقربها منه، فقال له الخادم في أدب:

. لماذا لا يقوم سيدي بتقريب مقعده من النار؟

هنا شهق نيوتن، وأعلن أن خادمه عبقريٌّ حاضر الذهن فعلًا!

القصة الأغرب هي (تشسترتون) الكاتب المسرحي البريطاني الشهير الذي وقف في طابور مكتب البريد ليحصل على حوالة مالية، فلما بلغ الشباك اكتشف أنه نسي اسمه!، وكان أول ما قاله للموظف المذهول:

. معذرة يا سيدي... لكن هل تعرف اسمي؟!!

يمكننا بسهولة أن نتصور ما قاله الموظف وما فعله.

شرود ذهن العباقرة أمر معروف للجميع، وإن كان يسبب الدهشة أولًا.

وكثيرًا ما يدفع الناس إلى اعتبار العبقري على شيء من "الخبال" أو الجنون... لكنهم بعد ذلك يقبلونه باحترام.

لكني أعترف أن شرود الذهن لا يدل على العبقرية في كل الظروف، بل قد يدل على عقل خاوٍ تمامًا. وباعتباري من الذين اشتهروا بشرود الذهن، فإنني أقرّ وأعترف أن أغلب الأوقات التي شوهدتُ فيها شاردًا لم يكن في رأسي أي شيء مفيد، لكن الناس تنظر لي في احترام، وتتصور أني أنظم قصيدة عصماء أو قصة عبقرية.

أشهر من عُرِف بشرود الذهن في عالم الأدب هو الأديب المصري (توفيق الحكيم)، لكن المخرج (محمد كريم) جلس معه طويلًا في أثناء كتابة سيناريو فيلم (رصاصة في القلب) ولاحظ أن جزءًا من هذا الشرود إرادي تمامًا. مثلًا، لاحظ أن توفيق الحكيم يجلس شارد الذهن وذقنه مستندة على مقبض عصاه، فيقول له محمد كريم: هناك فتاة حسناء سألت عنك أمس.

عندها يفيق الفيلسوف الشارد على الفور، ويستفسر عن كل التفاصيل. هذا إذن شرود إرادي يفيق منه متى أراد.

الموسيقار عبد الوهاب اشتهر بالشرود الحقيقي، ويقول كل من اقتربوا منه إنه كان يزوم كالقطط طيلة الوقت لأن الألحان لا تكف عن زيارة عقله.

أحمد شوقي الشاعر كان شارد الذهن كذلك، وكان يخرج علبة السجائر كل بضع دقائق ليدون على هامشها بضعة أبيات قبل أن تضيع.

على كل حال، يمكنك أن تنجو بشرودك فلا يسخر منك أحد إذا أقنعت الناس أنك فنان. وهو حل لا بد أن تلجأ إليه إذا أردت أن تنجو من مواقف محرجة جدًّا.

مثلًا، ذات مرة كنت شارد الذهن وقابلت امرأة ذات وجه مألوف على سلم بيتي فهززت رأسي وقلت في وقار متحفظ: مساء الخير.

وواصلت النزول، فقط بعد ربع ساعة تذكرت أن التي قابلتها هي أختي! والله العظيم حدث هذا وليس من تأليفي.

في مرة أخرى كانت زميلة عمل مملة تكلمني بصوت رتيب عن أشياء كثيرة، فلجأت إلى الحل الأمثل وهو صوت (م م م!) كل ثلاثين ثانية بما يوحي بأنني أتابعها.

وفجأة فطنت إلى أنها تنظر لي في لوم وقد كفت عن الكلام الرتيب، ولما نظرت إليها قالت:

. أنا أسألك!!، وكالعادة لا إجابة عندك إلا (م م م).

هذه مواقف محرجة جدًّا لهذا عليك أن تقنع الناس على سبيل الاعتذار أنك عبقري وأنك تفكر في عظائم الأمور. عليك أن تعتذر ثم تخرج ورقة مطوية وتدون فيها بعض الكلمات بلهفة ويد ترتجف، ثم تتنهد في ارتياح كمن فرغ من آخر بيتين في ملحمة الإلياذة.

غرابة أطوار؟ ربما... لكنها ليست أغرب من أن تقابل أختك فلا تعرفها، أو تكتشف زميلتك أنك لا تسمع حرفًا مما تقول.

وكما هي العادة، شرود الذهن سوف يجعلني أفرغ من كتابة هذا المقال ثم أرسله لزوج خالتي كما أفعل في كل مرة).

والإبداع في حقيقته غير مرتبط بمجال أو مهنة أو تخصص معين، لذا قال عنه الدكتور/ طلال أبو غزالة: (إذا كنت تعمل كنَّاسا للشوارع، فإنه لا بد أن تقوم بكنسها مثلما كان يرسم مايكل آنجلو، ومثلما كان يؤلف بتهوفن،

ومثلما كان يكتب شكسبير، ولا بد أن يقول كل شخص يرى ما أنجزته: ما أعظم هذا الكناس، وإنه لأعظم شيء أن يدرك الجميع قيمتك).

عندما عاد الطفل إديسون إلى المنزل قال لأمه: هذه رسالة من إدارة المدرسة.

قاومت الأم دموعها وهي تقرأ الرسالة لطفلها بصوت عالٍ:

"ابنك عبقري والمدرسة صغيرة عليه وعلى قدراته، عليك أن تعلميه في المنزل".

مرت السنوات وتوفيت والدة إديسون والذي تحول إلى أكبر مخترع في تاريخ البشرية.

وفي أحد الأيام وهو يقوم بالبحث في خزانة أمه عثر على رسالة كان نصها:

"ابنك غبي جدًّا، فمن صباح غد لن نُدخله المدرسة".

بكى إديسون كثيرًا وبعدها كتب في دفتر مذكراته:

"إديسون كان طفلًا غبيًّا، ولكن بفضل والدته الرائعة تحول لعبقري".

يقول ديل كارنيجي: أي إنسان طبيعي يرغب في أشياء كثيرة، كالصحة الجيدة، والغذاء الجيد، والنوم العميق، والمال.. إلخ.

وهي رغبات يمكن تحقيقها باستثناء رغبة واحدة تلك التي أسماها فرويد «الرغبة في العظمة»، وأسماها ديوي «الرغبة في أن تكون شيئًا مذكورًا» ويضيف أيضًا.. «كيفية إشباع رغبتك في أن تكون شيئًا مذكورًا هي التي تحدد أي نوع من الرجال أنت».. ربطت هذا الكلام لـ"ديل كارنيجي"، بشهادة قرأتها لرئيس شرطة أمريكي يقول فيها: «إن أول ما يطلبه المجرم لحظة القبض عليه، هي تلك الصحف التي نشرت جرائمه، وينسى تمامًا

الكرسي الكهربائي، فكل ما يهمه هو رؤية صورته في صدر الصحيفة مع المشاهير!!».

ربوا أبناءكم على أنهم عظماء وكبار، لا تقتلوا فيهم الحرية والإبداع، لا تحقروا من تجاربهم الساذجة ولا من أخطائهم العبثية.

وإنما اخلقوا في عقولهم وقلوبهم روح الإبداع، حرروهم بالتجربة ولا تقتلوهم بالتلقين.

المحتويات

مقدمة وإهداء ٤
عندما يتوقف الزمن!.. ٧
أحلام مؤجلة.. ١٦
عذرًا.. هذا ليس من حقك!.. ٢٠
عندما يُبدع القدر! ٢٤
الأمور ليست دائمًا كما ترى!.. ٢٨
الأذكياء الواهمون.. ٣٢
الرفاهية تبدأ من الروح ٣٦
في رحاب المستريحين.. ٤٤
السادة المتعصبون.. مهلًا!.. ٤٧
قراطيس الطعمية.. ٥٣
الانتظار القاتل.. ٥٥
الوجه الآخر للغرب ٥٨
خدعوك فقالوا!!.. ٦٦
سحر التفكير الكبير.. ٧٠
لمّا الكوفيد ينام!.. ٧٥

الترند.. وحرب المهرجانات!.......................... ٧٩
التسويق بالقيم.. ٨٧
هل ستتحكم التكنولوجيا في مصير البشر؟!........... ٩١
الكاهن.. والبقرة!!.. ٩٦
ذكاء المسافات يصنع الفارق!!.......................... ٩٨
القهوة حلوة!! ١٠٥
هل نحن حقًّا متناقضون؟! ١٠٨
أجراس الكرامة.. ١١١
وقود المبدعين... ١١٥